السمان يهاجر شرقا

رواية

السيد نجم



الهيئة المصرية العامة للكتاب
١٩٩٥



السمان يهاجر شرقا

رئيس مجلس الإدارة :
ا . د سمير سرحان

رئيس التحرير :
جمال الغيطانى

مدير التحرير
سعيد عبد الفتاح

الغلاف
والتصميم الجرافيكى
للفنان : محمود الهندى



العصفور لا يغرد ولا يبكى

التففنا حول الترانزيستور لسماع بيان المفتى ، علت صرخة بين أرجاء ــ مست جرميت تحت الأرض رقم ٥ ــ غداً الأول من رمضان ، تبادلنا التهنئة داعين الله بصدق :

« ربنا لا يعوده علينا ونحن هنا » !

قاطنى كل الملاجىء اجتمعوا معاً لتجهيز سحور اليوم الأول صيام ، عن نفسى اكتفيت بالخروج من الملجأ ، لأدخن سيجارة وحدى . لا أعرف بالتحديد فى الدنيا شيئاً يستحق أن يجعلنى لا أعترض على ما أنا فيه الآن فى تهوع سنى التجنيد ، تلك التى طالت وبلا أمل فى الخروج إلى الدنيا .

كل ما يشغلنى الآن . . كيف أقضى رابع رمضان لى مجنداً ولا جديد ؟ . أصبحت فى شك أن القيادة ستصدر أمراً بالقتال على أية صورة من بعد . ريح هوجاء لطمتنى بغته . وزنى منذ وصولى تلك الوحدة ــ المستشفى الجراحى الميدانى تحت الأرض رقم ٥ ــ زاد تسعة كيلو جرامات ، خلال تلك الفترة التى لا هى حرب ولا سلم ومنذ الحاقى عليها من كتيبة المدفعية التى عايشت فيها آخر شهور حرب الاستنزاف المريرة .

تأكدت من عجزى عن التفكير فى المستقبل القريب والبعيد وقد استقر بى المقام فى ملجأ يضم رقباء طبيين .. كما عجزت من قبل . كلما حدثت رفقائى .. هارون الهادى ، صلاح مسيحة ، محمد نوفل .. بشأن حبيبتى وموقف أهلها منى :

« إنهم يرفضون الصبر حتى ينتهى تجنيدى ، ويرفضون قبولى زوجاً لإبنتهم ، وأنا المجند ، ما رأيكم أرشدونى ؟ » . كانت فرصة لصلاح أن يُسمعنا عنوة وبافتخار مغامراته النسائية التى لا تنتهى أو هى التى بلا بداية وبلا نهاية ، فهو السوهاجى خريج جامعة الاسكندرية والمقيم فى القاهرة . له فى كل موقع منها قصص ومغامرات تكفى أن تُسرى عنا ليالينا الطويلة المُملة المتشابهة .. يقول ويؤكد بلهجته الصعيدية حاسماً :

« أنا حللتها مع نفسى ، تسعون فى المائة من المشكلة جنس ، اسمع يا طارق ، تستطيع زيارتى فى الإجازة القادمة وأحل مشكلتك ، عندى كل طلباتك » .

أما هارون السكندرى المولد والمُقام ، الهادىء الطبع المتزن التفكير ، قال :

« أنا حللتها برفض الفكرة أصلاً .. يا صديقى من الجنون أن نفكر مجرد التفكير فى الزواج ، صدقنى » . يومها كشف لنا نوفل عما كنا نجهله عنه : « صدقونى أنتم ، ما نحن فيه الآن ، أعايشه منذ ٦٧ وما قبلها » .

يقاطعه صلاح : « نكشت فيلسوف عصره ، أنت الجانى على نفسك ، أما أنا لا أتحمل الفلسفة ، تشربون الشاى معى ؟ » . وافقناه ، طلبنا من نوفل أن يتابع . كان أنشط أفراد منظمة الشباب الاشتراكى حتى نال دوراتها المتقدمة إلا أنه أثناء مظاهرات الطلبة عام ٦٨ أعلن معهم إعتراضه على وسائل الجهات الأمنية فى معالجة المظاهرات التى سألت : « من المسئول عن النكسة ؟ » اعتقلوه . رفيقة المنظمة وقفت بجواره وهو داخل المعتقل وخارجه فتزوجها ، ليلتها عرفنا الخبر لأول مرة . ما كان من صلاح الذى ترك الشاى يغلى إلا الصراخ :—

« هل أنت متزوج حقاً ؟ »

« نعم »

« ألا تخشى الموت وترميل زوجتك ؟ »

« ولا أخشى على إبنتى من اليتم »

بالرغم من كل شيء فرحت يومها بنوفل . عاودت المحاولة مع حبيبتى ، طالبتها أن تتخذ موقفا متشدداً مع أهلها ، ولما لم تبد موقفاً . . قبولاً أو رفضاً ، قلت لنفسى : « كيف ستصلح زوجة لى إذن ؟! » بعدها قلت يجب علىَّ أن أعيد حساباتى كما تعلمت من القذف المدفعى أثناء تواجدى مع كتيبة المدفعية .

أشعر أن الغضب والكراهية ينهشان قلبى . . كيف يا ربى الخلاص ؟ . لطمنى هارون بغته جعلنى أنتبه له ، حضر وفى تلك الساعة المتأخرة باستدعاء رسمى له من الأجازة ، لم يمهلنى ، لاحقنى :

« ماذا حدث ؟ الدنيا إنقلبت ، استدعائى من الأجازة وكأنى سأحرر سيناء غداً !! » .

« لست وحدك ، تم إستدعاء كل الأفراد من الأجازات » . . « لكن يا طارق لفت نظرى تحركات مكثفة على طول الطريق إلى السويس » . . « المهم الآن كل سنة وأنت طيب . . تعال » . دخلنا الملجأ لنجد الرقيب أول « عطيه أبو شنب » مع نوفل وصلاح يضحكون ، وهو ما يحدث دوماً إذا ما حط أبو شنب فى أى مكان ، شاركناهم فى شرب الشاى ، حتى كان سؤال هارون — الرائق — كما نسميه :

« قل لى يا أبو شنب ، كيف ترعى شنبك هذا ؟ » لم يمهله صلاح قال :

« أكيد وأنت فى حضن أمرأتك » .

أما أبو شنب فقال شارداً بصوت محايد : « أرعاه فى كل وقت ومع كل المواقف . . إلا أيام ٦٧ » شعر بتشوقنا للاستماع، تعمد الصمت . لم يعاود الحديث إلا بعد إلحاح منا وخاصة من صلاح الذى يسخر منه دوماً ، فقال :

« طائرات العدو حسمت المعركة ولعلها الحرب كلها خلال ساعات قليلة فى الخامس من يونيه ، كُتب علىَّ وعلى أفراد وحدتى الأحياء التيه فى صحراء سيناء ،

لم نذق جرعة ماء حتى تشققت الشفاه ، لما تورمت الأقدام خلعنا الحذاء الميرى ، وجدنا أنفسنا على مقربة من الطريق الأسود الأسفلتى ، يا له من لون رائع مُطمْئِن جميل ذلك اللون الأسود فى الصحراء ، وسط الصُفره ، ربما لأنه يعنى الحياة أو الطريق إليها .

تقدمت نحونا سيارة جيب صغيرة ، أحد الجنود القى إلينا بزمزمية بها مياه مثلجة ، مياه ومثلجة ، لا ناس عطشى فى صحراء .. تخيلها ؟! ، لا أدرى من أين وأتتنا القوة حتى نتصارع عليها ، ليضحكوا علينا وليتضح لنا أنهم من الأعداء .. تخيلوا هذه أيضاً . أخذونا إلى معتقل الأسرى ... كنا نستيقظ فى الخامسة صباحاً وننام فى الخامسة مساء بالأمر ، نقضى الوقت فى الأعمال الحقيرة ومع تعمد سوء المعاملة ، إنتشر القمل والأمراض الجلديةفينا . لا أنسى فكرتهم الخبيثة ، أن نستيقظ صباحاً على صوت أم كلثوم تُغنى « فات الميعاد » ، وعلى صوتها ننام وهى تُغنى « على بلد المحبوب ودينى » !! .

لم يحاول « أبو شنب » الإجابة على أية أسئلة وجهت إليه بالرغم من محاولاتنا معه ، تابع : « وقتها لم أهتم بشاربى .. ترهل .. وقتها أيضاً كنت أبكى » .

القلق والحزن أغرقا الملجأ فى غموض المجهول ، وحاولنا الحديث لكن بنغمة أقل حزناً . لم يعودنا أبو شنب على ذلك .. قال نوفل :

« لا تحزن يا أبو شنب .. لولا الضباب عام ٧١ كنا عبرنا ، ثم كان عام الحسم وفعلاً تم الحسم لكن علينا نحن !! » . تابع صلاح ، تكلم بهدوء غريب عليه وعلينا : « عندى لك فكرة ، هنا الوحدة تقع بين تبتين أقترح عليك تنقل أحداها مكان الأخرى .. عموماً اليمنى أصغر قليلاً » ! لحقنا هارون الرائق :

« لكن لا تنس أن مجموعة « الحيه » ــ مجموعة صواريخ سام ٧ ــ يحضرون مع أول ضوء ويختفون مع آخر ضوء ، عليك بتنفيذ المهمة خلال فترة الليل وإلا تاهوا وتصبح مشكلة عسكرية أمنية » . حسمت سخريتهم أخيراً بضرورة التفكير فيما سنتناوله فى السحور ، وبالفعل شُغلنا بالموضوع كثيراً .

عاد هارون يُلح ويؤكد عما فى رأسه : « يا جماعة رمضان هذا العام مختلف هذا خامس رمضان لى وأنا فى الجيش استدعاء الأفراد من الأجازة ، التحركات التى شاهدتها على طول الطريق إلى هنا . الظاهر نبوءة ناجى ستتحقق » . بلا إهتمام سأله صلاح :

« وماذا فى نبوءة ناجى ؟ ! » زميلنا ناجى منذ أكثر من شهرين يُعلن بشكل خفى ، يسربه إلى أذن من يثق فيهم وهارون أحدهم . . ما يؤكد أنه سيتحقق خلال شهر اكتوبر . أخبرنا هارون أن الرجل يتنبأ باندلاع الحرب خلال شهر اكتوبر ويُصر على رأيه ، عندما سأله ولماذا ذلك الشهر ؟ !! يرد عليه ببساطة : « لأننى كثيراً ما أخطىء وأؤرخ أرانيك الجنود وأية أوراق أوقعها بهذا الشهر ؟ ! » . فكانت فرصة أن نتذكر زميلنا ونوادره ، نضحك وربما لنستولد الضحك إستيلاداً لعله يُسرى عما فى رؤوسنا !!! .

عاد صلاح يذكرنا بأول ما تحدثنا فيه ، بدأ يشعل سيجارة جديدة :

« لا تنسوا ، وصلتنا تعليمات استكمال كل النواقص من الأدوية والأجهزة والمعدات اللازمة لتشغيل المستشفى ، كل الدُشم الخمس وبكامل طاقتها . نعتبر أول مستشفى جراحى عسكرى بعد القناة . تذكرت ما علمته فى الصباح ولم أعره إهتمامى ، أخبرتهم : « بالمناسبة علمت بوصول إشارة تتضمن أسماء عدد كبير من الأطباء المكلفين المفروض إلحاقهم على المستشفى وقت الحرب من المدنيين وأعضاء هيئة التدريس بكليات الطب » . أكد صلاح على كليهما :—

« أنا عندى تعليمات بالتوجه إلى المستودع الطبى غداً لاستلام التجهيزات والمعدات المتبقية ، كذلك ما يلزم لتفادى الحرب الكيماوية وسوف نستلم بعض عربات الإسعاف لخدمة النقط الطبية التى تدخل فى تشكيل أحدهم يا طارق ، هذا هو عيب الحرب لو حدثت سوف تحرمنا من بعضنا ! » . علق نوفل بعد طول تفكير كعادته :

« منذ ثلاثة أيام والدكتور فاروق قائد الكتيبة يومياً فى مركز قيادة الفرقة ١٩ ، أكيد هناك تفاصيل كثيرة سوف نعرفها منه » . لم يكن أمامى حيلة كى أقنع نفسى بعكس ما يقال أو بتصديقه . . نفس حالتى ليلة سمعتُ طرقاً شديداً

على حوائط الملجأ يدغدغ أذنىَّ وأنا نائم فى ليلتى الأولى بوحدة المدفعية التى أُلحِقْتُ عليها ، قبل وحدتى تلك . . عندما شارك الفئران القاطنة معنا . .

فزعت ، تأملت مؤشرى الساعة ، كانت بعد الواحدة فى ليلة شديدة البرودة ، وجدت فيها أن للغباء لذة وللبلادة حتى جذبنى وهدان حكمدار طاقم المدفعية الذين قضيت معهم فترة خدمتى هناك ، عاد إلىَّ خصيصاً كى يطمئنى ويرشدنى فى ليلتى السوداء تلك . . . أمرنى بارتداء الحذاء ذى الرقبة الطويلة وبوضع الخوذة الحديدية فوق رأسى : « ارتدها حالاً . . الحالة كاملة » . ولما لم أفهم ، جذبنى من يدى ، ألقى الخوذة بنفسه على رأسى ودفعنى أمامه آمراً :

« أخرج بقدمك اليمنى . اتل الشهادتين يا وحش . . أفهمنى أن التراشق يتجدد احتفاء بى بعد فترة راحة قصيرة غير متفق عليها ، ثم اختفى ، حاولت متابعته . . فشلت .

ارتميت إلى أول خندق صادفنى ، همست إلى من بجوارى ، أحكمت ربط « الزبط » . ذلك النصف معطف بغطاء للرأس ثقيل والذى لم ينجح فى نزع القشعريرة من جلدى . نبهنى رفيقى فى الخندق أن أكف عن حركة ساقى العصبية اللا ارادية . وجدت من الأفضل مصادقة ذلك الكائن المشغول عنى ، سألته :— « ماذا تعنى تلك الطلقات الحمراء هناك فوق الضفة الشرقية » ؟ كررت سؤالى بإلحاح ، نهرنى أن أنتظره تابعته بكل حواسى ، وجدت فى الانشغال به ميزة الهروب مما أنا فيه نجحت فى استنتاج تفسير ما ! عرفت أن الطلقة الحمراء تُستتبع بسيل من الطلقات وبداية تراشق مدفعى ، تعلمت أن للدانة ثلاثة أصوات . . قصيراً عالياً حين الانطلاق ، طويلاً حاداً وهى تخترق أجواء المكان ، ثم صوتاً لا يوصف وهى تنفجر ، ولهذا وحده حكاية . . فصوت الانفجار فى الرمال غير الانفجار فى الرجال ، قد تكذب ولا تنفَجر ألبته . بان لى أن رفيق الخندق هو مسئول الاتصالات وحامل التليفون الميدانى ، سمعته يردد :—

« هِلّْ . . مسموع من جهة الشرق » . . لم يعبأ بسؤالى وأسئلتى من بعد . تابع : « يا فندم ربما إبرار جوى إسرائيلى بالهليكوبتر » .

إستمع جيداً إلى رد القائد ، ثم انشغل فى تبليغ الإشارة إلى كل قادة السرايا لم أجد إلا تعليقاً واحداً أردده بينى وبين نفسى :—

« يبدو . . أننى دخلت المعمعة حالاً » .

تأكدت مشاعرى بوصول إشارة تفيد سقوط دانة مدفعية للعدو على مقربة من السرية الثانية . أسرعت إليها .

هالنى ما شاهدت وقتها ، أجساد بشرية هلكت ، أشياء جامدة مبعثرة . . حافظة نقود مفتوحة يُطل منها وجه طفل يضحك ، مصحف صغير . آه . . ممدودة من هنا ومن هناك . شخير أنفاس لا تقدر على الخروج ، أسرعت إلى نقل ثلاثة أحياء إلى الكتيبة الطبية الثانية .

استقبلنى الرفاق . قبل مضى دقائق قليلة سمعنا « أزير » سيارة زل تقتحم أرض الكتيبة، انفرج الرفاق عنى ، اندفعوا نحو السيارة ، رأيت السائق يعتلى إحدى التلال بمقدمة السيارة بحيث استقرت مائلة إلى أسفل . . فوراً فُتح الجانب الخلفى لصندوق السيارة . . رأيت ما لم أتوقع ، دماء تتسربل ، أعضاء بشرية تتساقط ، أشياء مختلطة بجثث الجنود . . كلها معا إلى الأرض . . !!

كومة الأجساد والأعضاء لفوها بالبطاطين ، نقلوها إلى مدافن الشهداء . لم أتابع احتساء كوب الشاى . عندما عدت لم أجد ما أتفوه به ، اكتفيت بالارتكان إلى حائط الملجأ المنبعج ، شعرت بأسياخ الحديد الصدئة للملجأ فى ظهرى ، فى عينى ولسانى . . . سألنى « بكر » رفيق الملجأ ، ذلك الموسيقى الحالم وعازف الناى الأشهر فى الكتيبة ، قال :—

« لم تحك لنا ما رأيت . . إذن تكلم فى أى شىء » . . قلت كى أخرج من جلدى بعد طول صمت :

ما عادت للكلمات أى معنى . . يا بكر » .

تدخل وهدان ضاحكاً :—

« الظاهر أن الملجأ امتلأ بالفنانين » .

تابعت وحدى :—

« أين كان العالم يوم اختلفوا على ثلاثة أحرف لاتينيه فى صيغة قرار الأمم المتحدة رقم ٢٤٢ بعد يونية ٦٧ » ؟

شاركنى بكر :

« حقيقى .. وكأنها مؤامرة عالمية ، مؤامرة الأقوياء ضد الغلابة ! » .
قاطعته مؤكداً :

« بل هى الحقيقة يا بكر .. العالم كله مع المنتصر حتى ولو كان ظالماً ، مع القوى » .

هدأت قليلاً ، خلعت حذائى ، تمنيت أن أنام ليوم كامل .. سمعت وهدان يسأل ببساطة غريبة وكأنه تعود على شىء ما لم أتعوده بعد ، قال :

« تفتكروا فيه دعكة الليلة ؟ .. مازلنا فى الليالى المُقمرة » ... علق « بكر » جاداً :

« آه يا قمر .. ربنا خلقك للحب والانسان جعلك للحرب ! » .

يلوح لى أننى مقيد بأوردة أذرعى وبهواجس رأسى ، فلم أنتبه لذلك المشهد اللافت للرفاق ، وقد اكتظ الملجأ بهم ، كلهم انشغلوا فى موضوع واحد ..
« إن رمضان هذا العام له نكهة خاصة » اتفقوا ، اختلفوا ،وما انتهوا إلى رأى .
قالوا ضمن ما قالوا :—

« التعليمات بإيقاف الاجازات يجب أن ننظر إليها بأهمية » .. « عادى ، اسهل شىء عند القادة إيقاف أجازات الجنود الغلابة » .. « كيف .. لقد تعودنا على ذلك ، ألم يحدث ذلك من قبل ؟ » .. « حدث ولكن هذا هو الجيش ، ربما تمويه هذه المرة ؟ » .. « تعنى حرباً يا صديق ، لقد انتهى زمن المقاتلة ، فقط نقاتل أنفسنا » .. « لا تتشاءم يا هارون » !! .

« ياصديق ، أنا اشتركت فى حرب الاستنزاف من أولها ، أيامها كنت أظن أنه يمكن الاستمرار حتى المعركة الفاصلة أما الآن .... » .

تدخل نوفل قائلاً :

« بموت عبد الناصر انتهى كل شىء .. كل شىء » .

قاطعه هارون زاعقاً :

« بعدما اعتقلك ، تقولها أيضاً وقد اعتقلت فى عهده » . ضحك صلاح معلقاً كعادته وبطريقته قال :

« ماذا فيكم يا أهل الاسكندرية . لماذا تكرهون هذا الرجل الصعيدى . . الصعيد دائماً منها الرجال الجدعان . . يا خسارة الرئيس الجديد منوفى وأيضاً ليس من الاسكندرية !! » تابع وحده وسط ضحكات الرفاق :—

« على فكرة ، ولن يكون أبداً . . طول ما فى هذا البلد صعايدة !! » كثرت الأحاديث المتداخلة والجانبية ثانية :—

« هل ممكن نحارب حقاً ؟! » .

« الشواهد تؤكد أن شيئاً ما سوف يحدث »

« مظاهرة عسكرية . . كما حدث فى ٦٧ ، ربنا يستر » .

« أنا لم أنم الليلة من صوت الجحافل الآلية المتحركة جهة القناة » .

« مناورات الخريف . . لا أكثر » .

« ربما تمهيد لقرار سياسى » .

« لا تنسوا أن الخبراء الروس قالوها . . وقالها المرشال مونتجمورى بتاريخه الطويل حين وقف عند الضفة الغربية للقناة وهم يشيرون إلى الساتر الترابى والنقط الحصينة . . قال أن الوسيلة الوحيدة للسيطرة على الذى أراه يحتاج إلى قنبلة ذرية محدوده » !

« ولكن وصلت تعليمات إلى الوحدة بعدم حجز أى مريض إلا فى حالات الطوارىء المستعجلة . . » و « أيضاً اخلاء مخازن الذخيرة السلاحليك — من السلاح وتسليمها للأفراد » .

« ولو . . . ؟ » .

« الدكتور فاروق يقول . أن اللواء « واصل » قال لهم أنه سوف يكون معهم مع أول الدفعات التى ستعبر القناة » .

« ولو . . . » .

« إذن بماذا تُفسر هذا كله ؟ . . حتى الاستعداد للحرب الكيماوية والوقاية منها على قدم وساق » .

« ليلة الأمس شاهدت لأول مرة وحدات المهندسين كبارى ووحدات عبور » !!

« ولو . .

ضل من كانت العميان تهديه . . . »

ولما طال النقاش بلا رأى واحد متفق عليه نهض صلاح ، صاح :—

« الأفضل نشرب شاياً ، الصوم سوف يُحرمنا منه » ، ضحكنا لأنه قبطى ، ويرفض التدخين وتناول الشاى والوجبات طوال فترة الصوم .



الطيور الفزعة

علاقة ما جمعت بينى وبين الطيور والكلاب والجرذان .. خلق الله على الأرض ، أرض جبهة القتال ، المنتظر ولا يأتى . أبداً أسأل عن تلك العصافير الرمادية الصغيرة التى تعتلى أسلاك الفولت العالى الممتدة من جنوب الوادى تعبر أرض الوحدة،وحتى مدينة السويس ، تمدها بكهرباء السد العالى :

« كيف جاءت تلك الكائنات الضعيفة إلى هنا .. ولماذا ؟ . تُرى أين المُستقر لهذه الطيور الفزعة هناك ؟ » .

كلما ضاقت بى جدران الملجأ ، وتزهق روحى من حدود الوحدة الرملية الممتدة ، وجبال عتاقة البعيدة ولا شىء يُرى من قبل ولا من بعد .. أمَل حدود جسدى ، أحترق نفسى بنظرات لاهثة راصدة نحو تلك الكائنات التى يتقولون عليها ويصفونها بالضعف ! أجدها لا تهمد ولا تكف القفز والحركة ، حتى فى ثباتها تظل تهزهز ذيلها ، يقال كى تتوازن ويخبرق أقول لكى لا تهمد هنيهة . اليوم أراها فزعة وأكثر اضطراباً ، أراها تتابع جنود ذلك الموقع الذى بات مكدساً بالجنود .. بين ليلة وضحاها أصبح الجنود على كثرتهم مقسمين إلى قوة أساسية تابعة للمستشفى الجراحى الميدانى رقم ٥ وهم الباقون فى الموقع وعدد

ضمن قوة أفراد الكتيبة الطبية الثانية والتى تخدم الفرقة ١٩ ومهمتها ستبدأ بعد العبور إلى الضفة الشرقية ، ثم عدد وأنا منهم ضمن النقاط الطبية المنتشرة على طول شاطىء قناة السويس بقطاع الجيش الثالث .

أما وقد وصل الأطباء المدنيون المكلفون وقد علقوا رتباً عسكرية تناسب درجاتهم المالية فى وظائفهم المدنية، تأكد عُسر الهواء للوفاء باحتياجاتهم واحتياجتنا . أيضاً العصافير البعيدة تهز ذيولها . . مازالت ، الذكى منها يرمى بمنقاره ورأسه إلى أسفل بشدة،وكأنه المتابع المحلل لحالتنا نحن البنى آدميين تحته . . بماذا يُحلل ، وماذا يقول ؟! .

الحركة غير العادية فى كل شىء من أرض الموقع . . الأفراد يتسلمون أسلحتهم الشخصية والتموين الميدانى الجاف والخوذة وأدوات الوقاية من الحروب الكيماوية ، أما العربات فتعبأ بتنكات البنزين والمياه وبالذخائر ، مستلزمات العلاجات التقليدية والسريعة فضلاً عن المحفات والبطاطين .

حان ميعاد تعبئة عربات الزل الخاصة بأفراد النقاط الطبية مع عربات الإسعاف .

حان وقت الترحيل إلى مجهول الزمان والمكان . إنشغلت مع الملازم أول طبيب نبيل قائد النقطة ، معاً حاولنا البحث على تلك الخريطة الصغيرة التى تسلمها حالاً حتى نحدد موقعنا على شاطىء القناة . . حدودها لنا بعلامة × تبعد حوالى خمسة كيلومترات عن العلامة المماثلة المجاورة،وعن موقع أقدامنا الآن بحوالى ثلاثين كيلو متراً . . سألنى إن كنت ذهبت إلى هناك ذات مرة . . نفيت . لوى شفتيه قائلاً :

« معنا الله » . . .

أشرنا إلى الاثنى عشر جندياً ــ حاملى نقالة ــ وهم قوة النقطة الطبية من الأفراد كى يسرعوا إلى ركوب السيارة ، « من لم يجد مكاناً فى صندوق السيارة الزل يركب معنا فى سيارة الاسعاف » .

ركبوا كلهم إلا « فوزى » . صرخ نبيل :

« أين الجندى فوزي .. إبحثوا عنه .. أحضروه من تحت الأرض .. ؟! » . الأرض شُقت وابتلعته ، الجندى فوزى بدين ، أبيض لون البشرة ، متوسط القامة .. ما معنى هذا ؟ هروب من الميدان .... سوف يعاقب بلا محاكمة .... أخرج قائد النقطة مسدسه ، شهره فى وجه زملاء الجندى المُختفى ولم ينطق !

اختفوا جميعاً لفترة طالت ، بعدها هاجت الرمال الناعمة واحتوتنا الأتربة وكأنها الخماسين فى أكتوبر ، فى الرابع من أكتوبر . حدقت ملياً .. وجدتهم يسحبون الجندى ! الأحد عشر جندياً يقبضون على ساعديه وعضديه وفخذيه وخصره .. يجرجرونه منها . أما رقبته ورأسه المدلاة .. أما ساقاه وقدماه الزاحفة على الأرض مثيرة للرمال والأتربة فقد رحموه من قبضتهم عليها .. ؟! .

ظلوا هكذا ، وظل هو كذلك يبكى حتى أوصلوه إلى باب سيارة الاسعاف ، يبدو أن استسلام فوزى إنقلب تمرداً شيطانياً . كلما صاح القائد علا صوت صراخ فوزى الذى هو ولولة ودعاء بالهلاك والموت له ولمن يُجبره على ركوب السيارة مع أفراد النقطة الطبية !

لم يعبأ فوزى بالمسدس المتجه إلى رأسه ، فوجد قائد النقطة من الحكمة محاورة الجندى ومحاولة إقناعه بأن ما فعل سوء سلوك وعدم وطنية وخيانة،وأنه الآن مثل النسوان بالضبط .. « وما الفرق ؟ هن فى بيوتهن وأنت كذلك » دهشت أن وجدته يكف البكاء ، أن وجدته ينطقها واضحة :

« لا .. أنا رجل وسيد الرجال ، أمى وحشانى .. منذ شهرين .. لم أنزل أجازة » ! اعتلى فوزى سيارة الإسعاف وحده بجوار السائق وهو يمسح إفرازات أنفه ووجهه المبلل بكم سترته العسكرية . جاء دورى لاعتلاء إحدى السيارات قبل أن تهم بالتحرك نحو موقع النقطة الطبية التى لا نعرفها رميت نظرة بجانب عينى ، لمحت ذاك العصفور الذكى نفسه يرمى بمنقاره ورأسه إلى أسفل بشدة .. مازال ! .

شغلنى مشهد الجندى فوزى وهو يبكى ، وهو يبرر هروبه منا ، وهو يرفض

أن يوصف بالمرأة . وهو فى النهاية يتمنى رؤية أمه . لم أجد تفسيراً مقنعاً . . شغلتنى آخر نظرة للعصفور الذكى .

تذكرت ما قاله أحمد عبد المعطى حجازى : —

تُغريني بالحب يا صديقى
فمن تُرى يضمن لى موتاً بلا ندامة
ومن تُرى يضمن لى فى هذه المدينة القيامة

بقيت على حالى حتى مللت ما فى رأسى ، رمقت كلباً يعدو فى البيداء الصفراء بجوارنا . . آه . . . الكلب . . . ذلك المخلوق الذى لم يبرح عينى وأذنى طيلة فترة تجنيدى منذ أيامى الأولى . شاركنى وعبث بأعصابى وقد وقفت للحراسة وفى يدى عصا غليظة بدلاً من البندقية فى مركز تدريب الخدمات الطبية . لم أحاول ضربه ، كثيراً ما كان يباغتنى فى سواد الليل بعينيه اللامعتين . مثلما رأيته يعبث فى مطرقة الجرس النحاسى الكبير لكتيبه المدفعية التى أُلْحِقْتُ عليها . فيما بعد ، أثناء فترات التراشق يرقد داخله ويعبث ، كأنه يحذرنا حتى إرتبط ذلك الصوت المتقطع للجرس ليلاً بليالى حرب الاستنزاف البعيدة . . . رأيته بعين رأسى بين حطام مدينة السويس المهجورة الحزينة يعدو ويلهو ، يوم اقترح هارون علينا قضاء ليلة هناك . . يومها سألت :

« أين الرجال ، لم ألحظ ظل أحدهم » ؟

قرأت ما كتب على الحوائط المهدمة . . . « النصر لنا » و « القناة لنا » . « يسقط الاستعمار » « ستعود سيناء » . « يارب يموت الاسرائيلية » . . . يومها غنيت فى مركز شباب السويس مع فرقة أولاد الأرض أغانيهم التى أبكتنا . . وجدتنى أردد بصوت مسموع وأرمى ببصرى إلى اللاشىء . أقول : —

يــا مــغــنــيــين مــوال بهيــه وحكـايـات الشـاطـر يـاسـين .
يــا مجرجــرين جثة مــاضينا فى طــريــق الــكــادحــين .
يــا راغــشــين مــوال ولادنــا يــا صــابغــين لــون السنــين .

وقت الغنـاوى فـات وعـدا   الـوقـت وقـت الحـيرانـين
م نـعـلـم ولادنـا غـير   غـنـاوى المـنـصـوريـن

الضابط نبيل أشعل سيجارة ، رشقها بين شفتى فصمت ، ابتسمت ، فهمت مقصده . . بعد فترة قال : « أحياناً الفعل ، العمل . . أبلغ من كل كلمات الدنيا » .

ربما يأتى وقت الغناء . . . ربما لا يأتى المؤكد ليس الآن ؟ » .

وقفت السيارات عند أقرب نقطة اعتقدنا أنها منطقة عملنا . . ثانية تطلعنا على الخريطة تأكدنا من النقاط الإشارية التى حددتها . . أرض زراعية ، طريق أسفلتى ، مبنى من الحجر مهدم ها هنا . . ولوحة إعلانات خشبية قائمة على قوائم معدنية مازالت تنبه المارة إلى أن احدى دور السينما بالسويس تعرض فيلماً « ريا وسكينة » .

منذ أواخر عام سبعة وستون والإعلان باق !

وقفت ونبيل نُطل على الأرض من حولنا . . أين المستقر والمقام ؟ . إقتحمنا العم مرزوق ، عرف مقصدنا ، دون أن نوضح له فهم . . فقال : « علىّ الطلاق بالثلاثة من أم العيال يكون مقامكم عندى . على الأرض » ، من هول ما سمعنا ، افتعلنا دارسة موقع المزرعة مما يتيح لنا فرصة تبرير الموافقة ليس بسبب قسمه بل لأسباب إستراتيجية ! .

تقدمنا الرجل فبدت كعبا القدم المتشقق ، وعرقوبا الساقين البارزتان لم يخفها الجلباب البنى الغامق المتسخ وقد رفع إحدى جوانبه وحشره فى الجيب . ظل كذلك حتى وقف وحده ليقول كلمته الأخيرة : « الأوله ، أنا هنا فى موقع يخدم حركة عربات الإسعاف . الثانية ، المكان مختدق طبيعى . . . والثالثة والأهم لزوماً تكونوا تحت رعايتى كلكم . . أنتم والبهائم ، والزرع . . عدم المؤاخذة ! » .

لم نكن فى حاجة إلى تبريراته فقد تورطنا عسكرياً إلا أننا لاحظنا إمكانية

الاستفادة من حجرة بناها الرجل بالطوب الأحمر ومغلقة . كما توجد بعض أشجار النخيل المرتفعة وكذا المزرعة على مقربة من الطريق الأسفلتي . . مال نبيل إلى رأسي :— « طالما نحن في دائرة علامة × التي حددتها الخريطة فلا مانع » . . وافقته صامتاً . . انشغلت فوراً مع الجنود للتأكد من التجهيزات الخاصة بحالة الطوارىء وبتوزيع الجنود على نقاط الخدمة أو الحراسة التي حددتها سريعاً ، ثم أخيراً بسؤال كل فرد من القوة عن سلاحه وذخيرته والتأكد من وجود اللوحة المعدنية المسجل عليها الرتبة والرقم والاسم لكل منهم . ثم جاء دور فوزى وقد قررت بيني وبين نفسي أن أفصله عن أعمال القوة مع عدم تكليفه بأية مهمة حساسة أو تكليفه بالحراسة . أخبرت قائد النقطة بذلك ووافقني ، وهو يتأمل سحنة الجندى التي بدت بلا أدنى إنفعال وقد كف النطق أيضاً ! .

رفض الجنود الافطار ، بعد الترحيل وما استتبعه من خطوات وأعمال ظلوا صائمون ، قبل ميعاد آذان المغرب بقليل انقض علينا العم مرزوق ثانية ، اختفى بعد أن تأكد من تحقيق رغبته الأولى ، هذه المرة أقسم بالطلاق ثلاثة أن يتناول الجنود طعام افطارهم من طبيخه » وليس من الوجبات التي تنشف البطن !! .

هذه المرة سعدنا بأن أقسم بالطلاق ، التهمنا كل الطواجن الفخارية المعروضة على أفواهنا ، أكلنا بشراهة غريبة الأرز والبطاطس والخبز والفجل والبصل والبرتقال . . كله ، كل ما عرضه الرجل علينا أكلناه . . . قبل أن يُقسم لثالث مرة بالطلاق طلبه نبيل ، وضعه تحت إبطه ، فالرجل قصير قصير ونبيل طويل طويل فكان لابد من تلك الرابطة بينهما وهو يحاول أن يجعله يعدل عن مبدأ القسم هكذا . . حتى قال نبيل :

« من الآن صدقني . . وبدون قسم . . وعلى أنا بالطلاق ثلاثة . . بالرغم أنني مازلت عزباً . . لن نرفض لك طلباً مادام لا علاقة له بعملنا ومهمتنا التي جئنا من أجلها . . ! .

سعد الرجل أكثر أننا أصبحنا نناديه « بالعم مرزوق » وبدون اتفاق بيننا منحناه اللقب .

أثناء تناول الشاى الدور الأول والدور الثانى والثالث لمن يرغب . قص العم مرزوق قصته ، هى نفسها قصة إخضرار تلك الأرض التى نجلس فيها وعليها ، وقد هاجر إليها من إحدى قرى الشرقية القريبة من منطقة القناة : « إستصلحتها بعرقى . . زرعتها بذراعى وكدى بعد حرب ٥٦ . أنا كنت الأول فى الخط كله ، كل من فى الناحية جاءوا بعدى بسنيين تعبت فيها ياما . . تزوجت عليها ومن خيرها . . خلفت وساعدونى عليها ، كلٌ على قدر قدرته . . .

رفضت الهجرة بعد ٦٧ ، أروح لمن ، أرضى هى أهلى وناسى وكل شىء لى فى هذه الدنيا . . أن عشت زرعتها . . إن مت أدفن فيها . . من التراب وإليه » . تحية لنا ، للدكتور نبيل ولى ، فتح لنا داره . . حجرة نومه هو شخصياً . . أقسم ولكن بغير الطلاق ، أقسم ثانية أنه شخصياً لم ينم فيها بعد هجرة الأولاد .

بدأنا رحلة النوم فى ساعة متأخرة من الليل ، ومعنا العم مرزوق ، عندما يغلبه النعاس يشخر بصوت خشن عال . . فلم تغفل لنا عين . . أنا ونبيل الذى همس فى أذنى :—

« النوم فى الطل أرحم » . . « نقضى الليلة كيفما تكون ، غداً يوم آخر ! » .

ضحكنا . . ينتبه العم لنا ، نُخبره أن يُعدل من وضع رقبته ، يوافقنا ويؤكد أنه لم ينم . . « كيف أنام ؟! » نحاول تفسير سؤاله أهو إستفسار أم إستنكار ، نتسامر حتى يغلُبنا النعاس ثانية . . لاحظته ما بين الحين والحين ينقلب من الجانب الذى ينام عليه إلى الآخر . . وفى كل مرة ، كل مرة يقول ويؤكد : « أنا صاحى . . أنت نائم يا طارق ؟ ! » .

فى الصباح التالى تسللت كى أتعرف على الدنيا من حولى ، عادتى كلما نُقلت إلى منطقة جديدة . زحفت حسب تعليمات العم مرزوق . . المُحنك إلى مقربة من الشاطىء الرملى للقناة . اعتليت أحد الكثبان الرملية لأرى ولأول مرة أرى . . العلم ذا النجمة السداسية الزرقاء على الأرضية البيضاء يحفها من أعلى ومن أسفل خطان باللون الأزرق ، بقيت على حال النظرة فترة لم أحسبها . .

شعرت برغبة أن أستلق على ظهرى ناظراً إلى السماء ، واضعاً ساقى اليسرى فوق اليمنى . بدأت أسائل نفسى :—

« ها هو ذا علمهم يرفرف على أرضنا فى الضفة الشرقية . . ؟
ها نحن ذا هنا عند حافة القناة فى مأمورية لا نعرف هدفها ؟
هل هى إيذان بإعلان الحرب حقاً !! » .

عدت واتهمت نفسى بالغباء :—

« كيف تكون الحرب . . العمال المدنيون يعملون أمامى عند شاطىء القناة فى بعض التجهيزات الهندسية والتى لم تستكمل بعد ؟ . . كيف ولم أر جندياً يرتدى الخوذة ؟ !! .

كيف وقد قرأت فى صحف الأيام الماضية إعلاناً لوزارة الحربية عن عزمها لتنظيم رحلة عُمره ، وعن تسريح إحدى دُفع المجندين ؟ !! .

إن المانشيت الرئيسى فى صحف الخامس من اكتوبر تُعلن عن توتر على الجبهة السورية ، قد يهدد بالانفجار فى أى وقت . . وكأن الأمر لا يعنى أحداً ؟ !! اكتفيت بالنظر فى المحل ، كما علمونا بالقفز فى المحل ، والجرى فى المحل . . أن أمارس حياتى كلها فى دائرة قدمىّ ، وفعلت شارداً ، علامة استفهام كبيرة قد إحتوتنى .

بالرغم من الصمت الغامض الذى إحتوى الموقع ، التقطت أذناى وسط السكون نشيش حركة مياه القناة القريبة ، فحيح الهواء يلاطمَ أوراق الأشجار هناك ، وربما أشياء أخرى لم أتبينها بعد ، وهو ما كان ليلة وصولى إلى كتيبة المدفعية لأول مرة . . التصقت بقدمى « العريف محمد » مندوب الوحدة التى سوف ألتحق بها ، أحاول جاهداً متابعة شبحه الأسود فى الظلمة ، وصوت أنفاسه . أدركته يعتلى كثباً رملياً . . وتارة يسرع الخُطى ، ومرة يُبطىء . . فى كل الأحوال يعلم السر !! .

وقوة تنال من كاهلى من ثقل المِخْلَة التى أحملها منذ الصباح . . نقفز معاً ، أنا وهى ومعنا العريف كالقردة من سيارة إلى أخرى حتى وصلنا ليلاً . .

وللسببين معاً صرخت ، افتعلت أننى تعثرت الخُطى حتى أريح نفسى وأجلس على المخلة ولأجبره أن يقترب منى . . . الهواء المندفع إلى تجاويف جسدى جعلنى أشعر بالقشعريرة من كثرة العرق المتنوح تحت سترتى العسكرية ، سألته :

« أين الجنود . . أين المقاتلون على الجبهة يا عريف محمد ؟؟

. . بأية حواس شيطانية يعيش هؤلاء ها هنا . . وكيف ؟ ! »

يبدو أن سؤالى استفز فيه عظيم خبرته وافتخاره ، فقال :

« أنظر ، هنا صخرة كبيرة على يمينى ، حفره برميلية ، هناك ملجأ أفراد . . ! » . ليلتها ظل يصف طبوغرافيا الموقع بثقة ليست غريبة حتى قال :—

« هنا سوف ينادونك . . بـ يا وحش »

سألته :

. . « ماذا تعنى ؟ !! » .

. . « تعنى أنك تعيش فى الأدغال » !!

هأنذا . . يغلفنى الصمت الغامض وقد احتوانى ثانية ولكنى بغير العريف المرشد . . . مازال السؤال القديم باق :—

« أين الجنود هنا . . أين المقاتلون على الجبهة ؟ . . ما أراه قِلة لا تشى بتجمعات تصلح للعبور . . كما أظن أو يخال لى ، إذا ما كانت هى الحرب ؟؟

سمعت صوتاً لا يوصف ولكنى أعرفه إنه لشىء يعدو ولم أره . . . . لعله لأحد الجرذان . لم أغير من موضع رأسى بعد أن رفعتها قليلاً كى أتابع الصوت ، خبرتى أكدت لى ما سمعت ، الحق يقال لم أر وأعايش جرذانا بحجم وكثرة جرذان ملجأ عتريس الأول والثانى وأنا فى كتيبة المدفعية !

فور وصولى إلى حدود الوحدة ، شبح آخر اتضح لى ، اتسعت كرتا عينى . . بان لى شاهراً بندقيته ، صرخ بصوت كفيل بإيقاظ الملائكة فى السماء :

. . « اثبت محلك »

رد العريف محمد المُحنك » :

.. « أمين يا وحش »
تابع الشبح :
.. « أقدم واحد يتقدم »
تقدم العريف ، لا لأنه أقدم منى ، لأنه أدرى منى فى هذه الدنيا الجديدة ، سرعان ما دار حوار سريع بينهما :
.. « كيف الحال يا أبو حميد » .. ؟
.. « عنب » .
.. « وأخبار ولاد الحرام »
.. « كل يوم علقه .. لكن الوحش خليل أصيب »
.. « خطيرة » ؟
.. « قدر ولطف »

بذلك القدر سّمح لنا الشبح بالعبور إلى طرقات الوحدة .. المخله ، ذلك الجوال المصنوع من الكتان ، بداخله كامل عهدة القوات المسلحة لى ، أحملها فوق كتفى الأيمن ثم الأيسر ، ثم أعجز على كليهما ، وكانت همى الثقيل ، منذ صباح الترحيل من المركز إلى وحدة المدفعية . ما أن أشار إلى العريف أن أنزلق إلى تلك الطرقات المعوجة المفضية إلى حفرة بها بشر . اندفعت هرولاً .. بإشارة أخرى القيت بها إلى الأرض حتى أثارت الأتربة فى وجوه الحضور . لم أكن قد تبينتهم ، شعلة اللمبة الصاروخ المرتعشة ، بانت كأفضل من قرص شمس وقت الظهيرة . لإجهادى رأيت الناس والأشياء ترتعش من حولى هى الأخرى ، ورأيت أسنانهم تلمع ، سمعت صوت حناجر قوية تضحك وأنا العن المخلة ومن فكر فيها ومن صنعها ومن سلمها لى ويوم استلامها ؟ !

علت الضحكات أكثر ؟ ؟ . إنهم أفراد طاقم المدفع « عتريس الأول » ، أسموه بهذا الاسم تيمنا باسم الحكمدار السابق لهم وقد استشهد .

ارتميت ، جلست على المخلة ، ألقيت نظرات متأنية فاحصة إلى الأشياء من حولى .. إلى الصور الملتصقة بالجدران المشيدة بتلك القوائم نصف الدائرية الحديدية والمكسوة بالخيش المقطرن المشبع بالزفت .. وقد رصت أجولة الرمال

رصاً منتظماً حتى غطت ذلك السقف المقوس ، لمحنى أبو غالى قال وهو مشغول فى شيء ما :—

.. « هذا الملجأ يسمونه قفص القرد » ...

رددت هامساً :

.. إنه أشبه بسجون العصور الوسطى » ..

لمحت تلك الصور المدلاة هنا وهناك بعضها لراقصة مشهورة .. ابتسمت عندما تذكرتُ ما كان منها :—

.. « إنها قالت : .. الفنان ليس له وطن . تركت البلد بعد ٦٧ ، وربما عملت فى ملاهى لبنان من بعد » ..

كانت صورة فريق نادى الزمالك وفى مقابلها صورة فريق الأهلى ، قلت بصوت عال :

« قالوا لنا إن الكرة سبب النكسة .. الكرة وأم كلثوم » .. من بعد شاركنى العريف محاولة التعرف على المكان ، قال :

وهذا الناى المُدلى .. ناى « بكر » ، أنه فى الخدمة الآن ، وعندك الداهية « رجب » أهم قناص فى الفرقه ١٩ » .

عندما التفت إليه وجدته يغط .. لحقنى العريف ضاحكاً :

.. « لا تصدقه .. حاول تسرق منه القلم مثلاً » .

أبو غالى حاول بكل الحرص ، إذا بيد رجب القوية تقبض عليه ، لنضحك ويعلق العريف مؤكداً :—

.. « ألم أقل لك .. ؟ »

أخيراً مللت الذكرى والتذكر ، عدت إلى أرض المزرعة بعد أن مررت على أفراد الحراسة وللسؤال هما إذا كانت هناك أخبار جديدة .. ؟ .



السمان يهاجر مرتين

فى الصباح التالى تسلم الضابط نبيل الإشارة التى قرأها سريعاً ، أطلق العنان لأفكاره ، لم يفصح وهو يُلقى بذلك الشعاع الغامض من عينيه قال :—

« هناك أوامر بالاستماع إلى الاذاعة إعتباراً من الساعة ١٠٠٠ صباحاً ، شىء ما يتأكد ، يفرض نفسه » . لم تعد الرغبة ولا الشواهد وحدها تشى وتفصح ، تجمعات جديدة من جنود سلاح المهندسين بمعابرهم المعدنية . كانت نوعين هما ما أمكننى تمييزها . كابينة سيارة ملحق بها كتلة معدنية سداسية الأضلاع ، عرض الضلع لا يزيد عن المتر ونصف وأخرى خشبية .

كان مركز تجمعهم قريباً من النقطة الطبية بحيث أصبح من السهل علىّ أن أتابع تحركاتهم وصوت همهماتهم . اقترحت على قائد النقطة أن نزيد من أعلام النقطة . قطعة الشاش الأبيض العريضة وترسم وسطها الهلال بالميكروكروم الأحمر . . نثبتها فى شجرة ، فى عصى ، فى أى مكان . وافقنى وإنشغلنا بعض الوقت فيها .

منذ اللحظة الأولى التى وطأنا فيها تلك الأرض . . لم أكلف الجندى فوزى بمهمة ، ولم أسقطه من رأسى ، وجدته وحده ينهض من موقعة المختار تحت

إحدى الشجيرات القصيرة ، يتقدم نحونا بثبات وصمت ، افتعلنا الانشغال فى العمل وعدم الانتباه له . . . بالصمت نفسه ، والثبات سحب قطعة من الشاش وانشغل فيها . عندما أخرج سيجارة وأشعلها وجدتها فرصة أن أشاغله :—

« ألست صائماً يا فوزى ؟ » .

« لا أصوم » .

« لماذا ، ألست رجلاً ؟ » .

فإذا بالصامت البليد السحنة يهيج فى وجهى ، لتخرج الكلمات من بين شفتيه غير مفهومة ولأسمع صوته لأول مرة منذ يومين :

العم مرزوق إنقض علينا كعادته ، فهو سريع الحركة ، سريع الكلام ، سريع القرار ، وكأن الدنيا كلها محسومة ومحسوبة فى رأسه ، ظننت أن هذا الرجل لا يفكر ألبته فى إجابة على سؤال أو فى إتخاذ قرار .. وهو ما حدث هذه اللحظة :

« فوزى رجل وسيد الرجال يا طارق يا بنى .. هو قال لى إنه سمع فتوى المفتى بأن للجنود رخصة الإفطار ففطر » ، وجهت سؤالاً إليه مبحلقاً إلى بؤرة عينية على أخلص إلى نتيجة تريحنى .. فاجأنى قائلاً :—

« منذ تجنيدى وأنا لا أصلى ولا أصوم » .

« لماذا ؟ !! » .

« مرتبك .. محتاس .. غارق » ؟

« فيما يا فوزى . . . ؟ » .

« فى الملابس الداخلية للضباط وأوساخهم .. فى تهذيب شواربهم وشعر قفاهم » .

« أنا أعلم أنك كنت ضمن أفراد ميس الضباط ولكنى لا أعلم أنك متزعج إلى هذا الحد . غالباً من يعمل فى الميس يعمل برغبته .. هناك الطعام المجهز والمحسن بالإضافة إلى الطعام الميرى ، هناك التقرب إلى الضباط والتجاوز عن المخالفات الميرى ، هناك الأجازات الطويلة . ألم تكن ضمن من تركوا الميس

وطلبوا عودتهم إليه لخدمة الضباط » . . . « لم يحدث . . لم يحدث » .

قالها بصوت عال ، هكذا . . من الصمت الغامض للصوت الهائج !!

« ماذا حدث إذن » ؟؟

« أنت تعلم أننى الحلاق الوحيد فى الوحدة لذا أجبرونى على الخدمة فى الميس . . حتى أكون تحت أمرهم وعندما تركتهم أعادونى بالقوة ! » . . « بل طلبتها أنت . . أنا واثق » .

طأطأ رأسه إلى الأرض :—

« نعم حدث » !

« ولكن لماذا . . لم تسألنى كى أجيب عليك ؟ »

« لماذا يا فوزى ؟ » .

« لأنهم نبهوا على الصول عبده بإنهاكى فى الخدمات أحياناً يومياً وغالباً « شينجى » . . وأنت تعلم أنها أسوأ الفترات فى الخدمة . . من العاشرة حتى الثانية عشر ليلاً ومن الرابعة حتى السادسة صباحاً غير خدمة السلاحليك ٢٤ ساعة ! » .

« وماذا حدث بعد ؟ » .

« عدت إلى الميس بالأمر ، وبالأمر حرمونى من أجازاتى عقاباً لى لاطلت العيش مع زملائى ولاطلت ميزات الميس إياها . . . زهقت ، طهقت » .

وكلاماً كثيراً من بعد ، لم أتبينه ، فهو ينطق الكلمات مضغومة والمعنى غامض ، فقد فهمت أنه حرم من أجازاته منذ فترة طويلة . . ولم ير أمه المريضة وهو وحيدها الذكر .

لم يتابع نبيل حوارنا وهو ما شجع فوزى على الكلام ، وكنت إنتهيت من العلم الثانى . لحقت بنبيل لمتابعة أحوال الدنيا من حولنا ، فى كل ثانية جديدة مشهد جديد ، جنود وسيارات وضجيج يعلو . . حتى كانت الساعة الثانية بعد الظهر حينما مرقت أسراب الطائرات . . متتالية إلى الشرق . . « مصرية إذن ! » .

« إنها قاذفات مصرية ت يو ١٦ يا طارق » .

قالها العم مرزوق الذى إعتلته الحيرة ، لم ينفعل مثلى ونبيل انشغل فى حك قفاه ، قال :—

« ماذا بك يا عم مرزوق » ؟

« القاذفة تحتاج مقاتلة إعتراضية تحميها يا جماعة . الطائرات الاعتراضية خفيفة الحركة وسريعة ، قادرة على المناورة مثل الميج » . فصمتنا أمام وجهة نظره الخبيرة . . سرعان ما تحول الصمت الحائر إلى أسئلة محددة :—

« ماذا تعنى بالضبط يا عم مرزوق » ؟

« هل سنفقد طائراتنا فى السماء هذه المرة ؟ ! » .

الرجل اكتفى بالدعاء ولم يرد على أسئلتنا . . دقائق قليلة وسمعنا ضجيجاً ألفته أقل قوة أثناء حرب الاستنزاف ، أصوات الدانات والفرقعات ملأ الدنيا . . . إنتصب العم مرزوق كأحد مارشالات الحرب العالمية المحنك ، وقف صائحاً :— « إنها الحرب يا رجال . . الطوبجية اشتغلوا » انطلق لسان الرجل الملجوم بدأ يشرح ويفيض ويتذكر خبراته بالأحداث والتاريخ أثناء حروب ٥٦ ، ٦٧ وحرب الاستنزاف . .

« إن تلك الأسراب المتوالية التى تعبر القناة إلى عمق سيناء ، مع ذلك الصوت الطاغى للدانات المتوالية لا يحمل إلا معنى واحداً . هى الحرب وقد بدأت ، أكيد . . . إن طائراتنا تضرب مطاراتهم وتجمعاتهم فى العمق ، ومدفعياتنا تدك الحصون والساتر الترابى وخطوط الإمداد الخلفية . . » زحفنا حتى اعتلاء أحد الكثبان الرملية ، تابعنا الحوار :—

« المدفعية تدك الحد الأمامى المائل للساتر الترابى يا جماعة » . . « أكيد حتى تتمكن أفراد المشاة من اعتلائه » . . « وربما لكبارى المهندسين أيضاً » . . بعد مضى ربع الساعة أشرت نحو السماء :— « انظروا لقد عادت طائراتنا ربنا سلم يا جماعة » . انقضت ربع ساعة تقريباً شعرنا بمياه القناة تتماوج وبرذاذات مياهها تلطم وجوهنا من شدة القذف . لم تهمد التعليقات : « أسراب طائرات جديدة جهة الشرق » . . . « قوارب العبور المطاطية يزداد عددها يميناً ويساراً . . ربنا

معنا » . « . . انظروا ها هم المهندسون . . بدأوا تركيب الكبارى » . . دُهشت من سلاح لم أره من قبل ، قال نبيل :—

« حسب معلوماتى هو المدفع الالمانى . . بالرغم أنه فكرة وتنفيذ مصرى ، إسمه كذلك مُخصص لعمل الثغرات فى الساتر الترابى . . يعتمد على فكرة المضخة المجهزة بطريقة خاصة لهذه المهمة » . . لم يمضى وقت طويل حتى امتلأ سطح مياه القناة بما يشبه رغاوى الصابون . حدق ثلاثتنا قيماً نرى . . تأكدنا أنه من أثر مضخات المياه التى عبرت منذ قليل فدفعت الرمال إلى مياه القناة وصنعت كل تلك الرغاوى التى جعلت سطح القناة يشبه حوض غسيل كبيراً . . جداً ، بطول القناة وعرضها .

شغلنا المشهد تلو المشهد حتى قلت : « ونحن متى سنعمل مثلهم ، ألسنا ضمن المشاركين فى الحرب ؟ . . فى البداية استقبلوا كلماتى وكأنه سُبة . . بعد هنيهه فكروا فى الأمر ، بما فيهم العم مرزوق . . قالوها معاً :— « ربنا لا يجعلهم فى حاجة لنا . . ولا نشتغل أبداً ! » عدنا إلى حيث فوزى،ضحكنا من القلب كما لم نضحك من قبل ، وهذا حتى لم نضحك منذ فترة طويلة . . اكتشفنا أن فوزى صنع أكثر من العشرين علماً للنقطة ومنهمكاً فى تجهيز العلم الواحد والعشرين !! . . استمعنا إلى الراديو ، موسيقى عسكرية . . قطع ، إعلان عن إذاعة بيان عسكرى عن القيادة العُليا للقوات المسلحة ، قرأه دون تحديد رقم له :—

« رداً على العدوان الغادر الذى قام به العدو على بعض مواقعنا على خليج السويس وسدره تقوم الآن قواتنا بقصف مواقع العدو » . . تبادلنا النظرات بغير لسان يتحرك ولا كلمة ، كأننا فى إنتظار سماع شىء ما لم يبح به المذيع .

أشار نبيل إلى سائق عربة الإسعاف الذى تقدم مسرعاً ، أمرته بالتحرك حتى أقرب مركز تجمع للقوات ثم يعود ، وعليه معاودة ذلك مرة كل ربع ساعة حتى يتضح الموقف ثم نظر إلينا :

« يجب ألا ننتظر المصاب » .

عاد موجهاً حديثه إلى مجموعة الجنود التى التفت حولنا . . يظنون أننا أدرى منهم فيما قيل وما سيقال من بعد . فتجمعوا بتلقائية يلفهم سؤال هو نفسه الذى يدور فى رؤوسنا .

« وماذا بعد . . تُرى ما الموقف بالضبط !! » .

هل بدأت الحرب ؟ . . هل هى معركة محدودة كما يُشير البيان . لم أصل إلى حل أو رأى محدد ، من خلال مناقشتى مع نبيل بعد أن أمرهم بالعودة إلى مواقعهم المحددة لهم من قبل .

ثانية لاحظنا التفافهم حولنا ، فور وصول عربة الاسعاف وداخلها أول مصاب ، يظنون وأنا معهم أن أول القادمين حتماً معه كل ما نتشوق سماعه من أخبار وأنباء . . كان أحد أفراد سلاح المهندسين يشكو من تقلصات غامضة فى بطنة ، لم نستطع سؤاله إلا بعد أن هدأ قليلاً وجف العرق الغزير من فوق جبهته اللامعة ، أجاب أن وحدته شرفت على الانتهاء من تركيب المعبر ، قبل أن يختفى الألم تماماً . كان العم مرزوق جهز له كوب نعناع ساخناً . . لم يشربه ، نهض واقفاً :—

« إلى أين يا وحش » ؟ !

« إلى وحدتى » . .

« أنت الآن تحت العلاج ، حتى الآن لم نعرف سبب المغص إنتظر حتى » . . « أنا الآن أفضل لو سمحت سيادتك » . لم يترك فرصة لمزيد من الحوار. ذهب وأيضاً لم نسمع منه ما يُشفى غليلنا فى متابعة ما يحدث من حولنا . إحدى عربات الزل تزمجر ، صوت نفيرها لا ينقطع ، أشار إليها الجنود بالوقوف ، رفعوا للسائق أحد أعلام النقطة ومنه الكثير ، سرعان ما إعتلى إثنان من جنود النقطة صندوق تلك السيارة استلما محفة من آخرين ، حملا مصابين على محفتين : « يبدو أنها بدأت فعلاً » !!

« فال الله ولا فالك يا طارق » . . قالها نبيل وهو يتابع المصابين شارداً » !! .

هالنى ما شاهدت . . أحدهما فقد النفس والنبض وكدمات شديدة فى وجهه وزميله صامت مبحلق فينا .

أشرت للجنود بحمل الأول بعيداً، ووضع بطانية فوقه، بعد نزع اللوحة المعدنية من قايش البنطلون، وسرعة تسجيل بياناته فى دفتر الشهداء الذى أعددناه سلفاً . . رقم / ١٧٨٣٥٩ . رتبة / جندى ، الاسم : إسماعيل ريان — همست : لعله أول شهداء الحرب . . سرعان ما شاركت نبيل فى محاولاته مع الآخر . . وجد المصاب لا يعبرعن شيء ، لا هو ألم ولا هو إنبساط، كلما نظر إلى مَنْ حوله أكثر . زادت قبضته على اللفافة التى يحملها !

سألناه :

« ماذا بك » ؟؟

« الحمد لله »

لم ينطق بأكثر من هاتين الكلمتين . . مال نبيل إلى أذنى :

« لاحظ ارتعاش أطرافه مع برودتها . . » بعد قياس ضغط الدم . . قال :—

« تعلق له محاليل . . ونرى »

« ماذا ترى ؟ »

« أخشى أن يكون هناك نزيف داخلى » .

انتهينا سريعاً من الإسعافات الأولية ، وتعليق المحاليل ، وحقنة بالمضادات الحيوية المناسبة ، ومضاد التيتانوس، أثناءها حاولت سحب اللفافة التى فى يد المصاب . . رفض . . العيون تعسعس الرؤى بفضول لمعرفة ما يحمل ذلك الرجل النحيف، المتوسط القامة، الأسمر البشرة، المتسع العينين، وقد رمانا بنظرات لعلها لاعنه لمجرد محاولة آخر فى سحب اللفافة بالقوة .

أخيراً جداً . . أمام الحاح الجنود يسألونه عما فيها . . إبتسم ، خرجت بسمة غامضة ، خليط هى ما بين تقلصات ألم وانشراح صدر . عفواً، انفرطت دمعة كبيرة وقد لمعت . بدأ يتململ صامتاً أخرج حافظة نقوده الجلدية السوداء الجرباء، دهشنا من تصرفه . . بدأ يُفرغ ما بها ، سحب صورة لفتاة ريحانة . .

أشار إليهم وإليها ثم بكى ، لأول مرة يبكى ولأول مرة ينطق :—

« ليس عيبا أن يبكى الرجال ، إنها خطيبتى ؟ » . « إنشغل نبيل فى قياس ضغط دم الجنــدى » . . « ربما يحتاج إلى عملية استكشاف » . « إذن ننقله فوراً » .

تابعت حوار الجنود ثانية، سمعته يقول :—

« نعم ، من النقطة الحصينة » . ما أن نطقها حتى إندفع الجنود عليه أكثر : « أول مرة نراه عن قرب » . . « نُريد أن نلمسه . . أن نقبض عليه » . . تشابكوا فيه وعليه ، إنفعل المُصاب ، سحبته بشدة ، ثانية اللفافة بين ذراعية ، نُقل إلى سيارة الإسعاف، إلى المستشفى الجراحى رقم « ٥ » .

أحد الجنود تقدم صائحاً : « إسمعوا إعادة البيان السابع يا فندم » .

« أيها المواطنون . . نجحت قواتنا المسلحة فى عبور قناة السويس على طول الجبهة وقد تم الاستيلاء على معظم الضفة الشرقية وتقوم القوات **البحرية** الآن **بحماية الشواطىء والساحل الشمالى بسيناء »** . .

هنا القاهرة . .

أما وقد بدأت معارك الدبابات مع تطور العمليات ، شعرنا بذلك مباشرة من خلال عدد المصابين ونوعيات الإصابة . بمضى الوقت إنشغلتُ عن أمور كثيرة كنت أحرص عليها فى البداية ، كأن أسأل المصاب عن تفاصيل المعارك ونتائجها ، ومن أى الوحدات هو وأين **كان موقع إصابته ؟** ، وغيرها الكثير من الأسئلة التى قد تتصل أحياناً **باسم العائلة ومن أى** المحافظات يكون وعمله الأصلى . . بل سمعت شكوى أحدهم وهو يدعو الله أن يعيش حتى يرى إبنه البكر، وقد ترك زوجته فى أخر أجازة وهى تعانى آلام بشائر المخاض . الوحيد الذى حافظ على تلك العادة هو العم مرزوق الذى إستقبلنى فى صباح الثامن من أكتوبر، وفى رأسه فكرة وحيدة : « إسمع يا طارق . . علمنى كيف تُعطى الحقن ؟ » . لم تعد هناك **فسحة** من الوقت حتى يقنعنى بفكرة أو لأقنعه بعكسها ، إلا أنه حرص على إقناعى بسرعة مبرراً طلبه، فقال :—

« يبدو أن الهجمات المضادة ومعارك عُمق سيناء شرسة ، مثلما نصرنا الله فى

العبور وتحطيم خط بارليف ، يقدرنا فى عمق سيناء » . كل ما حرصت عليه من بعد أن ألفت نظر الرجل إلى أهمية التطهير وخطورة تلوث مكان الحقن أو الحقنة نفسها. أما طريقة وخز الحقنة فقد كان من الذكاء بحيث تابعنى وتعلم الوخز حالاً . . خاصة أننى لم أتردد كثيراً بل سعدت بمعاونته لنا :

بعد الثانية ظهراً زاد عدد المصابين وتنوعت الإصابات ، لعلها كانت أكثر من أى يوم سابق بالنسبة لنقطتنا الطبية ، هذه المرة حرصت على سؤالهم . المصاب تلو الآخر بحسب درجة إصابته وتحمله، يطول الحوار أو يقصر .

« من أين يا وحش »

« من جبل المر »

« أين ؟ »

« على عمق ١٥ كيلو متراً يا فندم »

« هل كانت معركة كبيرة » ؟!

« لقد كان الموقع الذى يضرب مدينة السويس وبور توفيق والزيتية بابو جاموس »

« رأيت أبو جاموس »

« مدافع عيار ١٥٥ مم ، و ١٧٥ مم . الموقع هو قيادة منطقة وهام . عندك شاى . . محتاج شاى صعيدى أنا كنت صائماً . . ربنا يسامحنى » . إندفع العم مرزوق وحده لإنهاء هذه المهنة ، وبسرعة عاد ومعه الشاى يقدمه إلى الجندى تلو الآخر محرضاً على الإفطار :

« المفتى أباح الإفطار ، توكل على الله . . فى السفر رخصة وفى الحرب رخصة !! »

بقى كوب واحد ، إبتسمت له وقلت عمداً :

« كوبك يا عم مرزوق »

« لا سمح الله . . أنا صائم »

فابتسمنا ، قال نبيل :

« تُحرض الناس على الإفطار وتصوم أنت ، عموماً الحقن تُفطر »

حدق أحد المصابين بحدة ثم قال : « للعلاج ، ليست حقن تقوية ولا هي . . . » .

إنشغلنا ثانية وقد بدأت معارك جديدة بين المصابين والعم مرزوق وبعض أفراد النقطة حول مشروعية وحُرمانية الحقن مع الصيام ، قبل أن يهدأ الحال ويتضح الموقف تماماً ، إندفع أحد المصابين وهم واقفاًقرر بينه وبين نفسه العودة إلى جبل المر .

اقترب منه نبيل مستفسراً حازماً معه :

« ليس قبل يومين أو ثلاثة حتى يلتئم الجرح قليلاً وتنتهى حُقن المضاد الحيوى » .

« الآن يا فندم .. أعطنى الحبوب بدلاً من الحقن » .

« الحقن أسرع وأقوى : . أنا الطبيب وأنا الذى أقرر » .. « الشفاء من عند الله أنت لا تعلم الحاله هناك » .

« هل أنتم من هناك .. كلكم »

أجابوا بالإيجاب ، دُهشت وهو ما دفعنى أن أسمع تفاصيل ما حدث .. فقال أحدهم باسماً :

« ليس قبل أن تُعطنى سيجارة »

وبدأ يتحدث بهدوء :

« الحرب علمتنى تدخين السجائر السوبر ، غالية علىّ .. الآن توزع علينا بالمجان وبعد الحرب سأدفع ثمنها من عرقى .. الخلاصة » .

قاطعته :

« السوبر توزع على الضباط يا وحش .. وأنت جندى لك علبة كيلو باترا كينج سايز . . . . . »

« النقيب سامح الله يخليه ، لا يدخن ولا يشرب الشاى ، يعطى حصته كل يوم منذ أول يوم فى الحرب » . تدخل نبيل آمراً الجندى بالحديث ورمى إليه بعلبته السوبر ، فقال المصاب :

« وصلت الأوامر للعميد محمد الفاتح باحتلال الجبل ، جبل المُر ، تحرك اللواء الميكانيكي كله نحو الهدف . . الجنزير عمل زوبعة من الرمال ولا رياح الخماسين أو أمشير .

ربك والحق انهالت علينا صواريخهم وكأننا في جهنم نار ودخان وحرائق وقنابل من كل جانب . لأني كنت من أفراد سيارة القائد ، تابعته وجدته بدأ يسأل السادة قادة الكتائب ، الرجل شايف بعينيه الهدف على بُعد كيلو مترين لا أكثر . . كان ردهم بحزن :

قال قائد الكتيبة الأولى « أنا مُحاصر الآن من جميع الاتجاهات . . ما التصرف » ؟؟ قال قائد الكتيبة الثانية : « أنا مُترجل الآن بعد تدمير الآليات » !!

قال قائد الكتيبة الثالثة : أنا بالخلف متابع جاهز يا فندم » . العميد الفاتح ألقى سماعة التليفون اللاسلكي وقف في السيارة المكشوفة منادياً في مكبر الصوت قائلاً :

. . الله أكبر ، الله أكبر . . النصر والعزة للإسلام يا شباب مصر » . ثم نزل من السيارة ، تابع الصيحات سائراً على قدميه نزلنا خلفه . بدأ يصعد الجبل ، طلعنا خلفه سيراً على الأقدام أيضاً . . . كلما لمح أحد الرجال يشير إليه ليتابعنا بعد أن غرزت السيارات في الرمال الناعمة .

كان بجواري ضمن مجموعة القائد الجندي محمد أبو خليفة حاملاً قاعدة إطلاق صواريخ ، والنقيب « سامح محمود » حاملاً صاروخين على كتفيه ، الكل حولنا من كل جانب . . من يلمح العميد يتابعه ويسير معنا حتى قابلنا المقدم « على حسن » بعد أن كان أقرب قادة الكتائب للهدف ، التحق بنا وتابع ، أصبحنا على بعد حوالي كيلو متر واحد من الهدف . الدقائق تمر سنين ، المهم ربنا قدرنا ووصلنا وعبرنا القمة واجتزنا الخط المحدد . دون أن أشعر وجدت الدماء تحت قدمي ، جلست على الرمال لفتها وعيني عليهم ، لفتها بسرعة وتابعتهم وهم يتربصون لدبابتين للعدو تقدمتا نحونا . . على مسافة حوالي

المائتى متر صرخ العميد :

« إضرب يا سامح » .

سقطت الصواريخ على بُعد ثلاثمائة متر بعد الدبابتين لأن أقل مدى خمسمائة متر . . ويشاء ربك أن قائد الدبابات يتوهم أن كل القوة معهم صواريخ . . هرب !

تصدق بالله هربهم طمعنا فيهم أكثر ، اندفعنا خلفهم ولا ندرى ماذا سنفعل لو عاودتا مهاجمتنا والاتجاه نحونا ؟ ! المفاجأة الأكبر أننا لمحنا إثنتى عشرة دبابة للعدو تدير جهة مدافعها للخلف وتعدو بعيداً هى الأخرى . المفاجأة جرأت « محمد خليفة » ، جرى وضرب آخر الدبابات بسلاحه « آر.بى.جى » فيصيبها، جرى مثل العيال الصغار لأمهم . . جرى وحضن العميد الذى أمر له بترقيه فوراً . . أنا نفسى جريت لمحمد ولم أشعر بإصابة قدمى ، حضنته بعدها لم أشعر بنفسى إلا وأنا فى الطريق إليكم هنا » . . ثم طلب سيجارة سوبر ، ذكره أنه أخذ منه العلبة بكاملها !! لا أدرى سبباً لمثل هذه الإشارة العاجلة أن ألحق على كتيبة المشاة القريبة المواجهة لحصن كبريت .

من قبل عندما وصلت إشارة إلحاقى إلى المستشفى الخامس من كتيبة المدفعية وعندما أخبرنى الصول صابر . . يومها إرتعشت شفتاى ، لم أنطلق ، ابتسم الرجل المحنك ، ربت على كتفى :

« الأيام دوارة يا بنى . . هكذا الجيش يملكنا ونحن لا نملكه » . . الآن عدت محنكاً خبيراً بشئون أسرار الحياة العسكرية، لم أبك هذه المرة ولم أفرح .

أخر ما فعلت وقبل أن أعتلى السيارة التى ستقلنى حالاً . . عانقت العم مرزوق بشدة. قال وهو يمسح دمعات من على خديه :

« صدقنى يا بنى يا طارق . . أنا لم أبكِ ومراتى مسافرة . . وهى مهاجرة وسيبانى ، صدق » . ولم يقسم بالطلاق . . إبتسمت معانقاً .



الثيران تلتهم التورته

البرج الخشبى البعيد فوق حصن كبريت على الضفة الشرقية وحتى التاسع من أكتوبر . . باق . داخله الجندى وقد علق النظارة المكبرة حول رقبته ، بحركة دائرية يرصد ما يحدث على الجانب المصرى . . « أنه بالشدة الكاملة ، ليس بالمايوه . . كما كان فى فترات سابقة » . قالها أحدهم لم أتعرف عليه بعد .

إنقضت الليلة الأولى لى معهم . . بعد أن قدمت نفسى إلى العقيد « إبراهيم عبد التواب » قائد الكتيبة المشاة الذى أمرنى بتجهيز واستكمال النقطة الطبية وتبليغه بتمام الموقف حالاً . . أفراد وحدتى الجديدة مشغولون . . إما فى تجهيز الشدة الخاصة بالعبور أو إعداد الشاى أو فى متابعة أخبار القتال وما يستجد من حولهم . إنتهى بى المقام مع مجموعة جديدة سرعان ما بدأت أتعرف عليهم . . معهم تناولت وجبة جافة فى العشاء . .

« أين أنت يا عم مرزوق . . وأين أكلاتك الساخنة » ؟ . نطقتها بصوت عال ، إنتبهوا لى ، سألونى أن أتحدث أكثر ، ضحكت وحسب تمنيت من قلبى أن أنام بعد سماعى ذلك الشخير المنتظم لأحدهم بجوارى،لم أفلح إلا عندما دخل أحدهم بعد الثانية عشرة ليلاً مستفسراً فى دهشة :

« لماذا لم تنم . . يا ليتنى رقيب طبى . . مثلك ؟ » .
لم أفهم ماذا يعنى ! ، تابع :
« يا عم أنتم سلاح الكعب العال،ومرفهون من أول يوم خدمة لكم فى الجيش وحتى آخر يوم »
« لماذا وأنا معك فى نفس الملجأ والوحدة والهَمّ؟ ! » .
« حتى الأفراد الملحقة على الوحدات المقاتلة ، لهم أجازتهم الخاصة وعلاقاتهم الخاصة بقادة الوحدات . . وكله ينفع كله » . . « هذا قبل الحرب . . الآن ماذا ترى ؟ » .

« حتى الآن لم تبدأ الحرب . . ربما سنرى . . ربما ! » . . دهشت ، سألت عن إسمه قال :

« تسألنى عن إسمى وكأنك تُحقق معى . . ومع ذلك أنا « جابر حقى » . إبتسمت ، سرعان ما دار حوار طويل . أخيراً بهدوء الواثق مديدة داخل جوال ملقى فى أحد أركان الملجأ قبض على شىء ما قدمه لى ، آمراً :
« خذ هذا »
« ماذا ؟ » .
« بصلة . . بها ستُحل مشكلتك وسوف تنام حتماً » . نجحت الفكرة المجربة . . نمت . .

استيقظت باكراً . . ولأننى نائم بملابسى وحذائى . . إندفعت خارج الملجأ ، اكتشف العالم من حولى كعادتى . . الحركة والاضطراب سمة الرجال والأشياء من حولى . انقضت بضع ساعات حتى سمعت دفعة طلقات من أحد أفراد مجموعة قناصة الكتيبة ولأرى سقوط الجندى المعتلى البرج الخشبى . . يسقط من عل إلى الأرض.علت الهُليلة من أفواة الجنود همس أحدهم .

« يبدو هذه المرة لن نحاكم يا جماعة ! »
سردوا وشردوا معاً فيما حدث مع « **الشيخ حسن** »،منذ حوالى السنة يومها أطلق عياراً صائباً إليهم. . إليهن وقد تجمعوا معاً على رمال الضفة الشرقية للقناة بالمايوة

من رجال وفتيات يلهون باطمئنان غريب.يومها إشتعلت الجبهة بالتراشق المتبادل بين الجبهتين ثم صدرت الأوامر العُليا بمحاكمة الجندى المتهور الذى أطلق النيران دون أوامر من القادة ، وانقضت فترة المعاقبة بالحبس لمدة ستة أشهر داخل سجن الوحدة . عامله العقيد خلالها أفضل معاملة ، لعله لم يقلها وهو بغير حكم الحبس !!

همست إلى نفسى :

« إذن هو « **حسن** » الذى تنبأ بأنه لن يُحاكم من بعد » . . ثم صمت . خبرتى فى كتيبة المدفعية علمتنى أن موقع جندى الاتصالات أفضل الأماكن كى أفهم ما يدور من حولى . كان لى ما أردت سمعت ما كان داخل الحصن الكائن أمامى . . فهمت هرج ، ومرج ، صراخ ، الجندى ينقل لقائده خبر سقوط جنود المراقبة بالنظر .

انتقلت إلى جملة الجنود من حولى أسألهم إن كانوا فى حاجة إلى شىء منى ، كلهم ما بين مُقطب الجبهة ، لاهث ، ولسان حالهم يطلب العون والرجاء من أجل الحبيب النبى . . الشدة وجاكيت النجاة والتسليح الشخصى . . أثقال لم يستطعوا منها فكاكا ، فى حملها مشقة فما بال الحركة بها فى الرمال الناعمة وتنفيذ المهام العاجلة . حملوا القارب المطاطى الثقيل،نفخوه ، أنزلوه على مياه القناة .

كلهم يسعون إلى تنفيذ المهام التى يعرفونها ، ينبطحون أرضاً إذا ما هبت غارة جوية ،وإذا ما هامت الدانات فوق رؤوسنا ثم يعودون إلى سابق حالهم . ينهضون يقرأون الصمدية والفاتحة والشهادتين،والمسيحى يقرأ أبانا الذى فى السموات .

مجموعة رفاق ليلتى الوحيدة معاً . . « حسين » وحدة يعلق ساخراً . . قد يبتسم الرفاق خاصة عندما انزلق « جابر » . . وهو يندفع نحو القارب المطاطى ، انزاح وهو يحاول القبض على القارب بكلتا يديه ، تقوس ظهره المثقل بالشدة فانفرجت ساقيه ليسقط كزرع البصل . . جذبوه حتى لا يغرق فى شبر مياه ، فهو مثلهم لا يجيد السباحة وكأغلب أفراد الكتيبة !!

فوراً استقر حسين وسط رفاقه بالقارب ، قال بصوته الجهورى :
« هى دانة عليها إسمك .. أو رصاصة مكتوبة لك .. مهما حاولت هو نصيبك » !

إنزلق القارب الأول ثم الثانى فالثالث .. وبدأ عبور الكتيبة ، أشرأب حسين برأسه موجها حديثه إلى القارب المجاور : « إسمعوا ... نتفق إما نعيش معاً أو نكون معاً مكان ما نكون » . زملاءه ، رفقاء الملجأ الباقون « صيام » و « اندريا » و « ربيع » و « جابر » ، كلهم معاً فى قارب واحد . القوارب تتجاور وتتلاحق ، يحملون قاذفات اللهب ، قنابل الدخان والأسلحة الميكانيكية ، سلالم من العصى الصغيرة والحبال ، ذخائر ومعدات ، تقدمهم جميعاً قارب يحمل العلم المصرى ، العقيد أمر بحمل علمين فى قاربين آخرين .

كنت ضمن القوارب الأخيرة التى حطت على سطح المياة مع « سلامة » بأجهزته الساحرة ، نستمع ويترجم وقد تصادفنا الجنود ينقلون الصورة إلى قائدهم داخل الحصن .. يقولون :

« المصريون ينزلون قوارب كوماندوز فى المياة المواجهة لنا مباشرة » .. « المصريون يعبرون الآن » ، « القوارب مليئة بجموع المشاة » . "يا سيادة القائد أرى بعض دانات مدفعايتهم نحو موقعنا » ، « يا الهى .. القذائف تسقط قريبة منا » .. « يبدو أنهم يصححون ضرباتهم ، القذائف تقترب أكثر » ، « النيران تقترب .. تقترب » . قائدهم يأمر بخروج الدبابات فوراً لمواجهة القوات المصرية، التى شارفت على الوصول إلى الضفة الشرقية .

لمحت زورقين على مقربة منا ، وقفا وأطلقا دخاناً كثيفاً أزرق .. ربما أسود ملأ المكان بظلمة ووحشة ، جعل الجنود يتهامسون ، أحدهم ، أشار إلى القاربين :

« إنها مصرية يا جماعة لتغطية حركة القوارب ونحن نعبر » . مازلت أتابع أسمعهم أكثر إنفعالاً يبلغون قائدهم « قائد الحصن » :

« سيدى القائد ، إن المصريين أسقطوا قوات مظلات من طائرات نقل على

مسافة عشرة أميال . . . عشرة أميال داخل سيناء فيما وراء الحصن . . أرجوك بلغ قيادتنا الأعلى . . أرجوك . . هل تسمعنى ؟ ! » .

الجندى لم يسمع رداً . . صرخ فى البوق محذراً قائده . . ثم تساءل :
« ولماذا لم ينجح سلاح الطيران الاسرائيلى حتى الآن » ؟؟
ولم يسمع رداً أيضاً !!

لم تخل تلك اللحظات من منغصات ولحظات فكهه !! هدرت بعض الدانات والطلقات فيما بين القوارب وحولها ، رذاذات المياة غطت وجوههم يمسحونها ثم يتابعون بحركة آلية سريعة ، كلهم إلا « صيام » الذى إنشغل كثيراً فى مسح زجاج نظارته . نهره « حسين » أن يعاود التجديف . . رد قائلاً وهو مازال على حالة :

« لو ابتلت . . بسيطة ، المصيبة أن تُكسر » !!
لاحقه اندريا :

« ليس وقته يا صيام . . شِد ذراعيك يا رجل » . . . علا صوته أكثر عندما لمحوا قاربين ينقلبان وقد علت المياة المتماوجة حتى صعب معها التجديف المنتظم ، لمح حسين أحد الجنود على مقربُة من قاربه يسبح ويحاول ، مد إليه بالمجداف حتى يعاونه على إعتلاء القارب المطاطى . . رفض ! ، قال :

« أنا دمياطى يا وحش سوف أصل قبلكم . . أنا صياد » . . . ظل يسبح وحده بين القوارب التى سريعاً ما تتجاوزه نحو الشرق . . . إبتسمت عفواً عندما سمعت جنود الرصد يواصلون إبلاغ الموقف لقائدهم :

« حاملات الجنود المدرعة بدأت تعبر الآن من هناك ، إنها تعبر فعلاً » . .
« يالها من كارثه ، الكثير من الجنود المصريين يقفزون على الضفة الشرقية ، ينطلقون . بعضهم يحمل قواعد للصواريخ الصغيرة الحجم . . » .

القائد « ميرك » يحاور نائبه « شوكى » :
ــ « ماذا تعنى يا ملعون ؟ » .
ــ « الكوماندوز المصريون الآن حولنا من كل جانب . . أجزم أنهم الآن

فى عمق عدة كيلو مترات من شاطىء القناة الشرقى .. أكرر ، شاطىء القناة الشرقى ومن موقعنا هذا ــ الحصن فى كبريت ــ »

ــ « إذن آمرك أن تُحرك الدبابات للمناورة أحذرك أن تصابوا ، استروا أنفسكم ، إنتظر منى آوامر جديدة » . ثانية فتح قائد الحصن خط الاتصال مع قيادته الأعلى .. أخبرهم بالموقف تماماً ، فسأله القائد الأعلى :

ــ هل أنت واثق الآن أنها المشاة المدرعة ؟ ..
ــ أكيد واثق !!
ــ اذن انتظر حتى أعيد حساباتى !

ما كان من قائد الحصن إلا أن بصق على الأرض ، أغلق الخط .. لهنيه لم أسمع إلا صوتاً داخلى أنا ..

ــ « هل ما أنا فيه الآن هى لحظات العبور !! » ...
ــ « كم من الليالى قضيناها نسأل ونستفسر ونتشكك أننا سنعيشها يوماً ..

قلنا ستكون لحظات الهلاك والموت .. آه ، هو الموت ذلك الذى لم يخطر على بالى منذ اعتليت القارب ولا أدرى لماذا ؟! .. قد تنسينا المهام الصغيرة المتلاحقة أشياء جليلة نصنعها ولا نعيها ، وهو ما جعلنى أن أقترب برأسى من رفيقى المنهمك فى جهازه :

« هل تفكر فى الموت ؟!

الرجل رمقنى ينظره لم أشهدها من قبل ، ولم ينطق . سألت رأسى ، « هل أنا رومانسى أم مخبول » !

شغلت نفسى بمتابعة الرفاق من بعد .. الأفراد يعتلون الساتر الترابى فى أقل من عشر دقائق ، لمح صديقه ربيع بلا حذائه ــ البيادة ــ زميله تابع الصعود حافى القدمين ولما نظر إليه عقب ربيع جاداً :

« أنا لاعب كرة قديم .. كنت ألعب بلا حذاء » .. جاء دور نقل الذخيرة والعتاد . أقام مجموعة الأفراد كوبرى آدمى .. يحملون الصناديق المختلفة الأحجام من أحدهم إلى ثان إلى ثالث وعاشر حتى أعلى الساتر والرمال الناعمة

جعلت أقدامهم تغرز فيها مما زاد من مشقة الحركة والصعود .

إنقضت فترة حتى تمكن كل أفراد الكتيبة من العبور . . فضلت أن أكون على مقربة من العقيد الذى بدأ فوراً فى توجيه مجموعات الأفراد للسيطرة المباشرة على النقطة الحصينة . واحدة من تلك المجموعات ـ مجموعة النقيب بسطويسى ـ الذى إتصل حالاً بالقيادة :

« أنا أسمع صوت دباباتهم من جهة اليمين وأيضاً جهة الجنوب الشرقى يا فندم » .

عقب العقيد :

« مهمتك عرقلة وتدمير هذه الدبابات ، كم عددها ؟ » .

« حوالى خمسة يا فندم ؟ » .

« إذن بتشكيل ثلاث مجموعات إقتناص احتلوا مربض الدبابات المواجهة لك . . نفذ » .

« تمام يا فندم . . عُلم » .

انقضت عشر دقائق ، خلالها أشعل العقيد سيجارتين حتى إستقبل الإشارة التالية :

(تمام يا فندم . . تم احتلال المربض » .

« تصرف حسب الأحوال لتنفيذ المهمة . . ربنا معكم » .

« تمام يا فندم . . عُلم » .

لم يكن موقع العقيد إبراهيم يبعد كثيراً عن موقع المعركة المنتظرة ، تمكن من مكانه من متابعة المعركة التى سرعان ما خمدت لتبقى الرمال الناعمة فترة أطول عالقة وتحركها الرياح .

أخيراً وردت الاشارة :

« تمام يا فندم . . تم تدمير دبابتين ، هربت بقية الدبابات . . » العقيد بلهفة يسأل مستفسراً :

: « أين بسطويسى . . أين النقيب قائد المجموعة » ؟

ولم يسمع رداً . . صرخ فى الجهاز : « لماذا لم أسمع رداً . . حول ؟ » .

ورد الرد بصوت مختنق خفيض :

« استشهد يا فندم » . . بعد فترة صمت على طرفى الجهاز اللاسلكى سمعنا المتحدث يتابع :

« مات النقيب فوق إحدى الدبابات وهو يحاول فتح برجها لإلقاء قنبلة داخلها » ؟ . . . أخيراً علق العقيد قائلاً :

« حافظوا على موقعكم . . إنتظروا تعليمات جديدة . . حول » .

« تمام . . يا فندم . . عـ . . ـلـ . . ـم . . » . لم أكن قابلت النقيب من قبل ، ربما ما أشعر به من حزن يرجع إلى أنه أول من سمعت باستشهاده فى موقعى الجديد .

خلال تلك الفترة التى توحى بالغموض للوهلة الأولى لم أكن أعرف كيف سأمارس عملى بالضبط ، بشكل بسيط أعدو إلى من ألمح أنه يعانى من شىء ما . . إنتابنى شعور بالخجل أن أسأل العقيد . . كيف سأعمل ؟! أشرت إلى رفيقى مسئول الاتصال أن يدلنى .

هذه المرة لم يدهش ولم يرمقنى بنظرته السابقة قال فى هدوء المحنك :
« الآن . . ليس وقتك ، إنتظر ، حالاً سيأتى دورك . . لا تقلق» . .خشيت أن أكون متقاعساً عن عمل يجب أن أقوم به . . .

إذن هذه هى الحرب ، الأفراد وجهاً لوجه مع الموت . . أليس كذلك ؟! .

لم أخاطب أحداً ولا انتظر رداً . . تابعت بمزيد من التركيز ما يصلنا من خلال أجهزة التصنت ، أن جنودهم داخل الحصن أصابها الهلع من ذلك الدخان الأصفر الذى يغزو حصنهم المنيع !

قال أحدهم :

« إنها غازات سامة . . اهربوا . . اهربوا جميعاً » .

ثان يؤكد خوفه يقول :

« نعم . . علينا بالهروب من ذلك القبر الفخ » .

ثالث : « ما ألعنها تلك الأسلحة الغامضة .. المصريون يستخدمون الغازات السامة » .

الأول : أنا مستعد للموت بالرصاص .. أما الغازات .. إننى أختنق أكاد أُشل .. ساعدونى » .

سُمع صوت طبيبهم يعلو ويقترب :

« حافظوا على هدوئكم ، إنها ستائر من الدخان ، المصريون يحاولون إقتحام الحصن .. حالاً سوف يزول آثرها .. إن المصريين يحاولون غزونا أو على الأقل تحطيم روحنا المعنوية صدقونى .. » عارضوه ..

أحدهم علا صوته أكثر،تشاجر معه،صرخ فى وجهه :

« أنت تحاول أن تحصل على وسام البطولة بأروحنا وهكذا أنتم يا رجال السلاح الطبى .. تدعون إلى الهدوء وفى رؤوسكم الحلول المناسبة للوقت المناسب » .

بانفعال تابع الطبيب :

« بل هى الحقيقة .. صدقونى جميعاً » .

ثم أعطى الجندى الهائج قرصاً وطلب له كوباً من الماء،عاد يقول للبقية من الجنود المذعورة :

« الآن عودوا إلى أعمالكم حتى لا نُهزم بالخوف .. قبل أن تهزمنا اسلحة المصريين » . هدأت كلمات الطبيب من ثورتهم خاصة،وقد خفت حدة السعال الجاف التى إنتابتهم ، وكذا وضحت الرؤية بينهم .. وضح خروج الطبيب مندفعاً خارج الحجرة بحيث إختفى صوته فجأة . بالرغم من كل ما أشعر به وأراه فى الواقع فإن الجنود من كل الاتجاهات نحو الحصن يعرفون ما لا أعرف وينفذونه .

الجنود يزحفون على الأرض الرملية ، إنتشروا خارج حدوده الملغمة والتى تقدر بأكثر من ثلاثمائة متر عمقاً حول الحصن من كل إتجاه خلال تلك الفترة تجرع قليلاً من المياة ، وبعضهم بال فى حفرة قريبة بجواره ، ومنهم من عجز عن

ذلك بالرغم من إحساسه بالرغبة فى التبول . . أغلبهم قرأ الشهادتين لأكثر من مرة .

أما « صيام » فقد أشار إلى جانبه الأيمن ، فهم « حسين » أنه المغص الكلوى المعتاد ، فهاج فيه :

« هل هذا وقته ، إنتظر حتى تموت شهيداً بدلاً من المغص الكلوى » . . « شربت كل المياة فى زمزميتى ، أعطنى زمزميتك » . . « خذها ثم ضع هذه الزلطة تحت لسانك » . . قبل أن يكف الحوار معه ، أدار وجهه متسائلاً إن كان صديقه تناول المسكنات فوجىء برد صيام قائلاً :

« نسيتها فى الملجأ،فى المؤخرة » !!

مهمة المجموعة الأولى ومنها حسين ورفقاؤه رشق المزغل الغربى حتى كف جنود المزغل عن توجيه طلقات صائبة ، لكنه مازال يتعامل مع القوة المتقدمة . مازال يرشقهم يصيبهم الجندى تلو الجندى . على غير توقع نهض حسين من موقعه ، زحف ببطء ولكن بانتظام على ثقة أن الثغرة التى فتحها زملاؤه سهلت تنفيذ ما فى رأسه. تقدمهم وقد أسرع من زحفه وإندفاعه . . زملاؤه لم ينطقوا انتظروا النتيجة ، يبدو أنه أصيب قبل أن يصل إلى هدف ما . . هدف فى رأسه هو !!

مدفعه الرشاش يعمل بالرغم من بطء حركته فهى ثابته،وكانت المفاجأة الجديدة ، إرتمى حسين فى مواجهة المزغل على غير تلقين وبدون أوامر وعلى غير التوقع أيضاً ، **فعلها** حسين ليصمت صوته العال الجهورى المتميز بسخريته . . بقية المجموعات المتابعة لم تضع عمله سدى . . إندفعوا عبر الممرات الحلزونية المحاطة بالسلك الشائك المُلغم !!

واندفعوا . . إندفعوا أفراداً وجماعات . . كلهم إندفعوا من بعد . منهم من مات حالاً وقبل أن يعتلى السلم الحديدى الحلزونى القريب من المزغل **الهامد** وقد بدا وكأنه نحو مقبره . . . . منهم أيضاً مَنْ نجح فى اعتلاء السلم ليعتلى سلماً ثانياً وثالثاً ، وتقدم حاملوا قذائف اللهب وقنابل الدخان .

الرمال اشتعلت، الحدائد احترقت ، الانفجارات الأرضية هنا أو هناك مازالت . .

لا يبدو أن الموت ممكن أن يكون فى الحرب ، هو فى شىء آخر وإنه يتخير هذا الجندى ، ويترك ذاك وكلهم نحو الهدف . حسين إندفع بإرادته نحو هلاكه ، أحد الجنود عبر مسافة تصل إلى مائة متراً داخل حقل ألغام دون أن يعلم ، لعله يعلم ولا يعبأ ولم يمت ، أو يهاب الرصاصات الطائشة ، تنال هذا فى رأسه وذاك ترتد من على خوذته . . نسى صيام المغص الكلوى ، إندفع نحو حسين وسحب اللوحة الألومنيوم من القايش .

قرأ الشهادتين ، قبل أن يتركه حرص أن يكور أصابع كفه اليمنى إلا . . إصبعه السبابة . . ثم تابع دون أن يبكى .

بمضى الوقت فهمت أن قائد الحصن ظل ينتقل من نقطة إلى أخرى داخل الحصن ليرى بنفسه حقيقة الموقف،عاد إلى جهاز اللاسلكى موجهاً حديثه إلى نائبه شوكى ثانية :

« شوكى » . . هل تسمعنى ؟!

« ماذا ترى الآن ؟ . . ما الموقف فى تقديرك الآن ؟ » . بهدوء رد شوكى قائلاً :

« إننا الآن أمام خطوط المصريين بل نحن تورته عيد الميلاد التى سيأكلونها الليلة فقد أحاطونا من كل مكان » .

« هل تعنى ما تقول » ؟!

« إنها الحقيقة » .

« وماذا ترى فى قوة المشاة الغازية ؟ » .

« أرى أن المصريين الآن فى عمق سيناء لعدة كيلو مترات وكذلك حولنا من كل مكان . . سيدى ، إننا أمام جحافل بشرية مسلحة . . ربما الكتيبة ضمن مهمة أخرى من مهمات المصريين التى عبروا من أجلها » . .

هذه الكتيبة من أجلنا نحن ياسيادة القائد ، الثور المعلق فى خوذاتهم وفوق

رؤوسهم مستعد الآن لالتهام التورتة من على المائدة » . عاد القائد ميرك إلى لعناته وعادته السريعة، بصق . . فور إنتهاء محادثته .

صاح « آفى » جندى اللاسلكى فى قائده بفزع :

« وصلتنى الآن إشارة بإصابة الضابط « أشول » باصابات خطيرة والطبيب يحاول إسعافه بكل الوسائل . كذلك مقتل جنديين بالمزغل الغربى رقم ٧ » . ثم قطع حديثه بصوت زاعق منفعلاً :

« أرجوك أن تُعيد نداءات الإغاثة من القيادات المركزية بعمق سيناء » . نطق القائد أخيراً :

« هكذا الرد منذ الدقائق الأولى لهجوم المصريين : . توجد عندنا بعض المتاعب ، طائرات الميج المصرية ضربت المعسكر وقُتل عدد من الجنود وسكرتيرة القائد العام . . نحن الآن فى انتظار القوة التعبوية من العمق » . بعد الحاح ومعاودة الطلب بفتح الاتصال بالقيادة الأعلى ، هذه المرة جاءت رسالة مختلفة :

« لقد نفذنا عملية لإنقاذ أحد الحصون الشمالية لكن الكوماندوز المصريين المحمولين بالهليوكبتر أوقعوهم فى كمين وأرغموهم على العودة » .

« آفى » بانفعال ويأس ظاهر :

« إذن ليس أمامنا يا سيدى إلا طلب معاونة المدفعية أكيد الضرب المدفعى المركز سوف يربك المصريين » .

صوت رنين الجهاز جعلهما يصمتان ، إستقبلا الرسالة الجديدة :

« ما هو الجديد لديكم » ؟؟

« ميرك علق بإنفعال :

« لا شىء معين هنا ، توجد نيران حولنا ، نشاهد القوارب المصرية تعبر باستثناء ذلك كل شىء هادىء فالمصريون من حولنا ومن كل جانب ! . دخل عليهما طبيب الحصن،على غير توقع صاح فى الجهاز وعلى غير الآداب والأعراف العسكرية صرخ :

« إنها جهنم دموية لا تتركونا . . لا تستقبلوا رسائل « شوكى » التى أرسلها

إليكم من قبل ، أنا سمعتها . . . فكل شيء عنده على ما يرام . . هذا الخنزير فقد الاحساس بالزمن والخطر . . إنه مريض . . أنا طبيب الحصن ومسئول عن حديثى إليكم » .

نجح ميرك فى سحب الطبيب بعيداً . . عاد ثانية إلى الجهاز المفتوح : « لا أعرف ما يحدث عندكم . . مدافعكم لا تضرب . . أحياناً تصلنا بعض الدانات بعيدة عن الهدف لابد من تصحيح الضرب » . ولما لم يسمع رداً ، بصق ثم إرتمى إلى جدار الغرفة المجهزة بأحدث أجهزة الاتصال ثم أشعل سيجارة .

بهدوء غير معتاد تقدم الجندى « آفى » نحو الطبيب الجالس إلى منضدة صغيرة وقد أغرق رأسه بين راحتيه قدم له زمزمية المياة . . « تناول بعض الماء » . تناول ثلاث رشفات لتعويض ما فقده من العرق .

فعل مثله ثم جلس إلى جواره متسائلاً :

« بالله كل هذه الحرب . . من الذى إخترعها » .

رد. الطبيب :

« جنون القتال ، نعم . . أكيد » ؟

« وماذا نحصل بعد كل هذه العملية التى لا ندرى كيف سيكون مصيرنا إذا عشنا حتى نهايتها » .

« بعد انتهاء العملية سوف تزور أهلك وأولادك » .

« بعد انتهاء العملية سوف يكون حصننا هذا فى الخطوط الخلفية سنجلس هنا وسيكون أولادنا فى القاهرة » .

« متى ميعاد الاتصال تليفونيا . . بالمنزل فى تل ابيب » .

آفى : « من الثالثة حتى الرابعة فى صباح اليوم الجديد »

الطبيب : « آه . . اليوم الجديد . . هو اليوم الجديد إذن ؟ » .



الجمل يجتر ما فى جوفه

الفرحة عبرت عنها كلمتان « الحمد الله » .

بدت وكأنها معلقة . . مازالت . بالرغم من نجاح الكتيبة فى احتلال الحصن خلال معركة استمرت ثلاث ساعات فقط ! . استشهد البعض أصيب البعض ، من عاش . . تراوده أفكار أقل ما تُوصف به أنها فرحة قلقة . . ربما لأنها مُزجت بالحرمان ممن استشهد وأصيب ، وربما لأنها مزجت بالغموض .

كلنا كان يتوقع أن ما حدث كان حرباً . . وهكذا الحرب . افتعل بعضنا انشغاله فى شيء . . أى شيء وادعى البعض أنه غير حزين على فراق عزيز . . يقولها هكذا : أنا لست حزيناً على موته . . إنه شهيد ، هم السابقون ونحن اللحقون . . أليس كذلك،هو فعلاً هكذا » ؟!

ويظل يكرر أسئلته الاستفهامية . . الاستنكارية الغامضة ، وهو ما قاله الأربعة الذين عرفتهم جيداً ليلة الأمس تأكد لهم استشهاد حسين خامسهم . . أما وقد انتشرت القوة حول الحصن،بأوامر العقيد عدم النوم داخل الحصن خشية أية طارىء :

« إنهم يعرفون أسرار الحصن أكثر مننا » . كان على كل فرد أن يحفر لنفسه حفرة خاصة يضع فيها جسده المنهك ، فكانت حفراتهم المتجاورات وقد طلبوا أن أكون خامسهم . . علق صيام مازحاً :

« على الأقل عندما نصاب لا نبحث عنك . . ولا يحدث معنا ما حدث مع حسين » . حاولت أن أهون عليهم ، فقلت عمداً :

« وماذا لو أصبت أنا » ؟

لم يفكر كثيراً . . . . « أمرك لله . . ما هو كلنا على كف الرحمن » . أحدهم قدم إليّ لمحادثة العقيد فى أمر هام . القائد وحده هو الذى ظل مقيماً داخل الحصن ، داخل مكتب قائد الحصن .

كلما اقتربتُ من الحصن أكثر بان لى من الخارج وكأنه قلعة أسطورية عالية مغطاة بشكائر الرمال وتلال منها . تشككت أنه يمكن أن يكون داخلها بشر يعيش خاصة أننى لم أدخله منذ إنتهاء المعركة وقد انشغلت كثيراً مع بعض المصابين وتسجيل الشهداء وحصرهم .

أية حياة داخلها تلك التى تشى بها شواهدى الأولى ، وهى من الخارج ثلاث طوابق صُبت بطبقات سميكة من الاسمنت المسلح وقد دُعمت بالقضبان الحديدية التى رفعوها من خط السكك الحديدية الذى كان بين القنطرة جنوباً حتى رفح وغزة شمالاً .

خلال اندفاعى خلف الجندى الذى يرشدنى إلى مكتب القائد لمحتُ بعض الجنود انشغلوا بجثة جندى ربما لجنديين اسرائيليين ، مررت خلال الدهاليز التى أقتحمها فتقتحمنى . أظن أنها لا ترحب بى تماماً ، فهذه الروائح التى تشبه رائحة حرق قوالح الذرة ، والدخان الذى جعلنى أدعك عينى وقد دمعت ، الفوضى فى كل مكان . . أوراق ، معدات أفراد ، واضح أنها شخصية جداً . . ماكينة حلاقة . . فُرشة أسنان،مجلات مصورة وبالعبرية ، كروت المعايدة خاصة وقد بدأت المعارك يوم « عيد الكيبور » ، لمحت بعض المعلبات . . من المربى والزبد . . همست للجندى المرافق :

« مرفهون فى الحرب وفى السلام » .
أكثر ما لفت نظرى أن رأيت ضمن ما رأيت بعض الملابس ــ غيارات داخلية ــ فى لفائف أنيقة جديدة تماماً وأيضاً ملابس نسائية . . إن لم أتأكد من بعد ، هل كان داخل الحصن مجندات أثناء المعركة أم لا ؟

رأيت دهاليز **النوم** ، أخرى لتناول الطعام ، ثالثة بها مناضد « بنج بونج » تنس طاولة ، أجهزة للتسلية والترفيه وراديو وثلاجات أما الحمامات المبطنة بالصاج اللامع ــ لعله فضى اللون ــ مجهزة بصنابير عديدة . فيما بعد عرفت أن منها الساخن وآخر بارد .

عندما مررت أمام إحدى الدهاليز أشار الجندى المرافق إليها ، كانت العيادة الطبية . القيت نظرة سريعة لفت نظرى فيها الامكانات المتاحة للطبيب المعالج ــ عبوات الدماء والجلوكوز والبلازما ، أيضاً معدات التصرف السريع مع حالات الكسور والجبائر المتعددة الاشكال والاحجام ، أجهزة معملية بسيطة وهامة .

لسان حالى يقول :
« هؤلاء الناس خططوا لامكانية الحياة والبقاء داخل **تلك** الحصون لأسابيع طويلة ، لعلها لعدة شهور دون احتياج لإمداد خارجى سواء طبى أو حياتى معيشى » ؟!
تذكرتك يا نوفل . . تُرى أين أنت الآن ؟ . . يوم دخلت علينا الملجأ **حاملاً كتاباً صغيراً ، بعد القُبلات لاحقة صلاح :**
« إرحم عدسة نظارتك » . . سألناه عما يحمل ، رد باهتمام كعادته :

« الحقيقة كتاب خطير جداً » . فوراً وقف صلاح كعادته عندما يشعر أننا سنتحدث فى موضوع ما لا يتعلق بالنساء !
« أنا علىَّ الشاى . . الأهم » .
تابع نوفل وهو يُقلب أوراق كتابة . . كأنه يبحث عن نقطة البداية المثيرة وقال :

« إنه من تأليف موشى ديان وزير الدفاع الاسرائيلى خلال حرب ٦٧ وما بعدها . . اسم الكتاب . .

« **خريطة جديدة وعلامات مختلفة** » المهم المؤلف يقول أنه فى عام ١٩٤٨ كنا ١٦٠ ألفاً واليوم نتحرك نحو إستكمال المليون الثالث وتلك العملية لم تبلغ نهايتها بأى حال وعلى الجيل الحالى أن يؤمن بضرورة حشر الشعب اليهودى وأن يبذل كل ما فى طاقته للتوسع والاستيطان ولا تقولوا هنا نهاية المطاف .

علينا أن نتذكر هرتزل نبى الصهيونية ، فنحن اليوم منتشرون من قناة السويس حتى مرتفعات الجولان . . إننا سنتقدم مرحلة نحو تحقيق الأهداف الكبرى » .

وهنا القى نوفل بالكتاب ، صاح :

« فهمتم يا جماعة ؟! » .

طال النقاش من بعد ، ابتسم صلاح وتحدث لأول مرة :

« الظاهر إنكم نسيتم تلك الجدران التى حولنا والتى هى قفص القرد والمسمى ملجأ أفراد . . هذا ؟! » . وأشار إلى جدران الملجأ العارية الجرباء بحديدها الصدىء ورائحة هوائه العطنة .

« الآن فقط أستطيع أن أرد عليك يا أيها الصديق . .

نعم . . لم ننسى !! »

تأكد ما دار بخلدى فور دخولى غرفة القائد ، لم تكن غرفة تقليدية ، لمحت **تليفون** ، جهاز لاسلكياً ، جهاز راديو ، **خزائن حديدية** ، خرائط ، تفصيلية ، بعض النماذج الهيكلية للأسلحة الأساسية . أشد ما لفت نظرى تلك الخريطة الكبيرة المدلاة على الحائط المواجهة لمقعد المكتب ، إنها خريطة اسرائيل الكبرى .

لعلنى الآن فقط بدأت أشعر بشىء جديد . يبدو أننا أنجزنا حقاً شيئاً يستحق الفرحة . . لماذا نقلل من شأن ما أنجزنا هكذا ؟ !! طالت نظرتى إلى الخريطة ، تساءلت :

« لماذا وضعها أمامه وليست خلف مكتبة كما هو الشائع فى وضع

الخرائط » . . تأكدت أنها لم تُوضع للتزين أو حلية للرؤية ، تأكدت مدى خطورة الكتاب صغير الحجم ؟ . حالاً تفرغ العقيد لى ، نهض فوراً ، سحبنى من يدى أشار إلى هناك حيث العيادة الطبية :

« الآن انقل عملك ها هنا فوراً . . هاك عملك ، شد حيلك ، هذه مهمتى معك . . أما مهمتك فأنت تعرفها » . تركنى ، دخلت وحدى العيادة ، بسرعة بدأت تعليمات القائد فى التنفيذ وامتلأت العيادة عن آخرها بالمصابين بعد أن كنت مبعثراً معهم فى أماكن عدة وبعد أن كانوا مبعثرين فى أرجاء المكان . شُغلت كثيراً حتى الارهاق الجسدى المنهك حتى انقضى الليل علينا ها هنا فى كبريت فتلاشت ملامح الأشياء والأرض والسماء ، إلا من فرقعات فضية متلألئة فرق رؤوسنا ، وقد فشلت جميعها فى رشق الظلمة هى والقمر المتآكل الذى ما فتىء أن اختفى سريعاً من سماء كبريت ، تلك النجوم التى عولت عليها أمالاً عظيمة حسبما علمنى العريف محمد ! .

عندما ذهبت مع مندوب وحدة المدفعية ، كنت أحمل ذلك الجوال الكتان ــ المخلة ــ وداخلها كامل عهده القوات المسلحة لى ، شللت أكتافى ورقبتى من حملها . . هالنى أن وجدت نفسى معه فى هول أمواج أجساد بشرية كلها ترتدى الميرى،كلها سوف تسافر إلى وحداتها المبعثرة على طريق مصر ــ السويس ، ثم التى على ضفة القناة الغربية مثل حالنا . قضينا الوقت كله قفزاً من سيارة إلى أخرى وحسب التساهيل . . حتى وصلنا ليلاً . . أخيراً . لحظتها إبتسم العريف وقال لى وهو يحدق فى شىء ما فى السموات البعيدة التى لم أتبينها من شدة الإجهاد ، يومها نظر مليا وقال : « تأمل يا طارق هذه النجوم المتجاورات . . تلك اللآتى تشكل شكل الكسرولة ، هذه النجوم أنقذتنى فى عام ٦٧ ، كانت دليل » .

سألته : « كيف ؟ ! » .

« سوف أعلمك كيف تسترشد بالنجوم ليلاً » . ثم تابع شارداً :

« من يدرى ربما نحتاجها إذا ما إندلعت الحرب ثانية » . ها هى الليلة الأولى لنا فى كبريت ، لها صوت ورائحة ولون ومذاق . . خاص،ومعنا النجوم،

ليس هو ليل الصحراء المفتوحة ولا الوحدات العسكرية كما ألفتها من قبل . أصوات المفرقعات وإن كان منقطعا ، نباح كلاب وهو ما أدهشنى كثيراً وجعلنى أبتسم أحياناً !! .

أما الصوت البشرى فلم ينقطع..الصياح ، بين الحين والحين يتبادله أفراد الخدمة الحراسة كأنه يخبر زملائه أنه مازال قائماً يتنفس،سمعتهم يستدعون بعضهم البعض بالاسم ، ويطلبون السجائر ولأنها فى العرف العسكرى من الممنوعات أثناء الخدمة فكانوا يشعلونها ويخفون رؤوسها المضيئة بين راحة أياديهم المتكررة مع فرجة صغيرة بين أطراف الاصّابع وكلوة الكف . . وغير ذلك كثير من الأصوات التى بلا معنى كافتعال السعال والتمخط والزئير .

أحياناً كثيرة يردد بعض الجنود « يالطيف » تلطفا باسمه ، « يا ستار » رجاء لستره ، « يا كريم » تيمنا بكرمه . . وفى كل مرة يلصقون نداءهم . . « يا لله » .

أما الرائحة التى غلبت كل الروائح فهى مزيج لا يوصف من روائح العرق لجواربهم ، أول ما أفعله مع المصاب أخفف عنه حذاءه،لعل بعضهم لم يخلع حذاءه طيلة أربعة أيام فائتة . . مخلوطة برائحة أنفاسهم المنطلقة من أجوافهم الجافة ، ثم كانت رائحة الدم المتخثر التى اكتسبت فيها خبرة خاصة حتى كنت استطيع إصدار حكم عن درجة الإصابة من رائحتها !

كثيراً ما كانت تصدق نبؤتى ! أما وقد إنتهيت حالاً من حفر حفرتى الأفقية وضعت فيها المشمع ، رقدت داخلها . لحظتها شممت رائحة نفاذة طرية ، لعلها جعبة كل الروائح التى شممتها منذ بداية المعارك .

وقد كان لليلة الأولى لى فى كبريت لون خاص ، لم يكن أسود بالكلية ولا رمادياً بأثر الدخان ولا مصفراً بصفار حبيبات الرمال الناعمة التى تتصاعد من جرجرة الجنود لأقدامهم عنوة من شدة الاجهاد .

عندما إنتهيت من آخر المصابين وخرجت فى ليل كبريت ، شعرت بالجوع : « يا جماعة أنا جائع . . . مازلت صائماً تقريباً ، إفطارى كوب من الشاى حرام

عليكم » سمعنى ربيع باهتمام انشغل قليلاً عاد بوجبة لم أكن أظن إننى سأتناولها ها هنا . قدم لى البسكويت المغروس فى اللبن . . « فتة لبن » . لم أسأل ما هى الحكاية ، أكلت حتى إمتلأت فكان لها مذاق خاص . . لم أكن تذوقته من قبل وكان نفسه مذاق ليلتى الأولى على أرض كبريت .

أثناء التهامى الوجبة الشهية إستلم « جابر » بعض الأوراق ، أشار إلىّ أن أقترب ، علمت أنها نشرة التوجيه المعنوى اليومية التى توزع على الوحدات يومياً ، بدأ يقرأ ونتابع صامتين .

. . . « موقف المعارك فى الثلاثاء الموافق ٩ اكتوبر :

، « الجبهة الجنوبية ـ مصر ـ » .

بعد أن أتمت قواتنا الاستيلاء على الشاطىء الشرقى لقناة السويس بالكامل . . تقدمت تشكيلات على طول خط المواجهة اليوم إلى مسافة ١٥ كيلو متراً داخل سيناء . . خسائرهم فى اليوم الرابع استسلم الاسرائيليون بالمئات بأسلحتهم ومعداتهم ودمرت قواتنا اللواء ١٩٠ مدرع اسرائيلى وأسر قائده العقيد « عساف يا جورى » . . دمرت قواتنا ١٠٢ دبابة اسرائيلية وأغرقت ٥ لنشات بحرية واسقطت ٤ طائرات هليكوبتر . . أسقطنا ١٦ طائرة فانتوم وسكاى هوك وأسرنا ٤ طيارين دمرت جميع مواقع العدو الحصينة .

، « الجبهة الشمالية سوريا » .

حاولت طائرات العدو الاقتراب من هضبة الجولان ، واشتبكت معها المقاتلات السورية اسقطت إحدى الطائرات فى تل الشيجة ، وفرت الطائرات الأخرى . . وفى غارة مماثلة تم إسقاط طائرتين للعدو ، وثم قامت ٦ طائرات فانتوم بمحاولة الاغارة على الأغراض المدنية فى دمشق ، تصدت لها وسائل الدفاع الجوى وأسقطت أربع طائرات . وهكذا تابعنا ما يحدث على كلا الجبهتين من خلال تلك النشرة المنتظمة،بعد قراءة النشرة فى الرابع عشر من اكتوبر تناقشنا كثيراً . . ، إختلفنا كثيراً ، لكننا إتفقنا فى النهاية وأن الفرحة مازالت معلقة بشىء ما !! .



ذكر النحل يموت فى أنثاه

لم تصلنا نشرة التوجيه المعنوى ليلة الخامس عشر من أكتوبر ، حتى عربات إسعاف الجيش الثالث الذى احتل حوالى أربعين كيلو متراً جنوب كبريت ، لم تعد تصلنا أيضاً . اقترح العقيد نقل الحالات الحرجة إلى أقرب وحدات الجيش الثالث مهما كانت النتائج ومشقة تنفيذ ذلك .

بات السؤال . . وكيف يتم ذلك ؟ !! .

الاتصال لم ينقطع بين العقيد واللواء بدوى قائد الجيش بعدها أمر القائد بحفر حفرة برميلية لكل فرد تحت اشرافه شخصياً ، وبدأنا التنفيذ . . خبرت سر إهتمام القادة بالحفر البرميلية ، فقد كانت أولى تكليفات المساعد « صابر » لى - مساعد كتيبة المدفعية — ، ففى صباح اليوم التالى لوصولى وحدة المدفعية دخل علينا الرجل لاهثاً وكانت تكليفاته : « عليك بالسير بالخطوة السريعة ، واستهلاك أقل القليل من المياه ، ثم الآن معى لتحفر لنفسك حفرة برميلية . . .

« كل فرد فى الكتيبة حفر لنفسه حفرة بعمق يكفى طول قامته » . . « حفرة ملاكى يا حضرة الصول » !!

« هنا الحفرة البرميلية تعنى الحياة ، يجب أن تعلم أن الاستفادة من خصائص البيئةلم نكن نعرفها قبل وأثناء حرب ٦٧ ، ثم أدار وجهه ، قال وهو يهم بالخروج :—

« ربما اليوم ، الآن . . تعلم قيمتها يا وحش » . سلمنى البالطة وأمرنى أن آخذ معى كنتين الطعام . لمح علامات الدهشة قال :

« هنا كله ينفع لكله ، اتبعنى بالخطوة السريعة ، عاودت العمل نفسه فى السادس عشر من أكتوبر — كما شاركت فى عمليات تحديد حدود الوحدة وشد الأسلاك الشائكة . كان العمل شاقاً حتى أن بعض الجنود المرهقة سقطوا فوق الأسلاك فتوخز أطرافهم . لم نكف العمل حتى تم شد الأسلاك بعمق كيلو مترين داخل سيناء . . بعدها اجتمع العقيد بقادة السرايا وقد طلب منهم تقرير نهائى وعاجل عن موقف التسليح والتعيين والقوة — عدد الأفراد — بعد خصم عدد الشهداء والمصابين .

عمل قلمه الأحمر فى الأوراق . . بعدها قال العقيد : « الظاهر الصيام إجبارى يا جماعة اعتباراً من الغد » . رمى نظرة محايدة يطوى بها السحنات المترقبة القلقة ، تابع : « نحن الآن فى موقف جديد ، يجب أن نتدارسه جيداً . لم نصل بعد إلى حد الموقف الصعب . هناك إحتمالات عديدة للمرحلة القادمة ألخصها فى عدة نقاط هى :

أولاً : تمكنت بعض وحدات من قوات العدو من اختراق المنطقة الواقعة بين الجيش الثانى والثالث،ووصلت الآن الدفرسوار وسرابيوم على الضفة الغربية . .

ثانياً : إذا نجحوا فى العبور وحاولوا التقدم سينالهم الهلاك ويغرقون فى الكثافة السكانية بالدلتا ، لو فكروا الدخول إليها .

ثالثاً : فى حالة نجاحهم فى تطويق الجيش الثالث،وهو أمر مرجح خاصة أن المنطقة المواجهة للجيش الثالث فى الصفة الغربية تكاد تكون خالية من السكان

ولا توجد بها قوات قتالية . لا يوجد سوى بقايا القوات أو مؤخرات الوحدات التى عبرت .

رابعاً : أنا متفائل بالرغم من هذا الموقف الجديد . . أثق فى قواتنا الخاصة التى بدأت تتعامل معهم بالفعل . . إن ما حدث سوف يكون مصيدة فئران كبيرة .

خامساً : تفيد التقارير المرفوعة إلىّ أن موقفنا الآن ، القوة ٢٠٠ مائتان جندى وضابط . . وأن التعين لا يكفى لمدة طويلة ، ولابد للبحث عن بدائل . أننا نعيش فوق أرضنا يجب أن نبحث فيها عن أكلنا .

سادساً : هدفنا الآن وصاعدا . . الحفاظ على الأرض ، أرض كبريت أمانة فى أعناقنا . نعيش عليها أو نموت من أجلها وندفن فيها ــ « النصر أو الشهادة يا رجال » ــ ثم سحب ورقة بيضاء ، بدأ يخط فوقها بعض الكلمات وقرأها بصوت عال من بعد :

« أقسم بالله العظيم أن أظل محتفظاً بالأرض مخلصاً لمصر . . مضحياً فى سبيلها بكل غال زاهداً من أجلها فى كل نفيس والله على ما أقول شهيد » . . أفهمنا أن هذا هو قسم الوحدة ، ومن يقرأه يعطى الورقة لزميلهُ ليقرأها بدوره . . هكذا حتى يقرأها كل أفراد الكتيبة .

عدت ومعى الورقة ــ القسم ــ **اعطيتها** إلى رفقاء الليلة الأولى لى فى هذه الوحدة . قرأوها ، بدورهم توجه بها جابر لإعطائها إلى آخرين ، عاد سريعاً . استقبله صيام ضاحكاً وهو يقول لى :

« تصور يا طارق أن جابر مجهز نفسه على الزواج بعد الحرب كان من المفروض أن يتم ذلك خلال شهور قليلة ؟ » . لم أجد فى الخبر ما يستدعى كل هذا الضحك منهم والتجهم منه دهشاً سألتهم :

« ما المشكلة فى ذلك يا جماعة . . نصيبة ؟ » ، أخيراً جدا أحدهم بدأ يتكلم وقد إحتقنت أذناه بشدة :

« طلبنا منه كثيراً من قبل أن يؤجل زواجه حتى إجراء العملية . . قلنا عيب

وحرام أيضاً ».

« أية عملية » . . ؟؟

تابع وهو أشد تحفزاً : « يصر أن الأجازة الميدانية قصيرة ولا يستطيع تنفيذها فى مستشفى » .

وجدتنى أسايره دون أن أعرف التفاصيل مادام فى الأمر مستشفى ، إذن فهى الصحة قلت :

« بعد الصحة لا شىء . . لو كان محتاج لعملية جراحية كان عليه دخول أية مستشفى عسكرى » : . . . . قاطعنى أحدهم :

« خجل يعرض نفسه على طبيب أو مستشفى عسكرى » . « لا أفهم ، فهمونى يا جماعة » ! « الحكاية باختصار أن جابر قرر الزواج وتقدم فعلاً لإحدى قريباته وهو غير مقطوع » . . « مقطوع ماذا ؟! » . « لم تطهره أمه يا سيدى . . فهمت ! » . . وجدتنى أسقط إلى الأرض من الضحك . . مشفقاً على « جابر » الذى بات عينين محدقتين . . وحسب .

دهشت أن انفرجت أساريره،وبدأ يبتسم عندما أخذوا منى وعداً بإجراء العملية داخل الوحدة فى الوقت المناسب ، إذا هدأت الأحوال . شاركتهم من بعد فى مزاح الليالى الطويلة حينما يجعلونه موضوع « سهراية » الليلة،حتى بت أبتسم وأخفى بسمتى بصعوبة كلما نظرت إليه إذا ما تحادثنا فى أمر ما .

انتبهنا مذعورين على تجدد الضرب المدفعى العشوائى ، رفعت رأسى من فوق الخوذة وقد جعلتها وسادة ، أطل إلى من حولى،أتأكد أنها الحقيقة وليس كابوساً ، لمحت شقشقات الفجر الجديدة،إرتعشت مع تلك النسمة الباردة الرطبة . سمعتهم يقولون إنها قنابل زنة الف رطل تلك التى تسقط فتصنع نافورة من المياة . أرى المياه تعلو عالية مختلطة بالرمال التى لا تهمد ، تحملها الريح الخريفية إلى انوفنا وعيوننا ، المدهش أن كل تلك القنابل لم تسقط داخل حدود الوحدة ، حتى وجدنا فى متابعتها لهفة ومتعة خاصة كأنها لاتهمنا نحن . . . من بعد تشابهت الساعات والأيام لم أنشغل إلا بمريضين . . « صيام » الذى يشكو من آلام المغص الكلوى و «عيسى» الذى يعانى من الآم روماتيزمية .

طلبت من كليهما العدو فى المحل ، وارتداء الملابس الثقيلة ، اختصصت صيام بزجاجة جلوكوز يشربها لتعويض فاقد المياه منه ، بمرور الوقت وجدت من هو أكثر اهتماماً منى بهما . . « حميدة » ذلك الأسمر القادم من مرسى مطروح قدم ذات صباح وفى يده بعض الأعشاب،قدم ما فى كفه اليمنى لصيام والأخرى لعيسى قائلاً :

« لامؤاخذة يا دكتور » . لم أفهم،همس إلى أذنى واختفى . عرفت أنه اقتطف تلك الأعشاب خلال الفترة السابقة لعلاج حالات المغص الكلوى والروماتيزم . طلب منهما شرب المياة التى تغلى فيها تلك الأعشاب . لم أعترض وإن راودتنى مخاوف أن تكون تلك الأعشاب سامة ، لم أستطع إخفاء ذلك ، قالاً لى رداً على مخاوفى :

« كله على الله ، موته لا أكثر » .

بمضى الوقت وقبل سريان قرار وقف اطلاق النار اعتباراً من فجر الثالث والعشرين من أكتوبر كثفت قوات العدو قذفها العشوائى وعملياتها العسكرية علينا . كان الضابط أسامة القرشى بجوارى لحظة بدء الضرب الشديد المكثف تساءلت حائراً . « لعله هجوم مباشر أخير بغرض احتلال كبريت ثانية » !!

حك أنفه وهى عادته المعروفة عنه إذا ما فكر فى أمر ما ، قال : « لعلهم يريدون الحصول على أكبر قدر من الأرض التى خسروها فى المنطقة ، أكيد . . ولو نجحوا فى احتلال الموقع كله فلا بأس ، فهو أقصى أمانيهم الآن .

قاطعته ، قلت :

« إنهم يضربون بطريقة مجنونة . . . هل ترى ؟! » .

شاركنا الضابط سامى بصوته الجهورى المميز ، قال :

« يبدو أنهم قرروا إبادة الحياة على سطح تلك الرقعة من الأرض ! » .

بصعوبة وصلت إلى الحصن حتى أتمكن من ممارسة عملى مع الجنود المتوقع إصابتهم حتماً . بصعوبة أكبر وصل ثلاثة جنود فقط . . دهشنا لانفعالات العقيد ابراهيم وهو المعروف بيننا بهدوء الطبع : « إنه الجنون ، جنون القتل ،

وسفك الدماء » . أما عندما تأكد بأن عدد المصابين ثلاثة فقط . عادت البسمة إليه وإن بدا وكأنه لم يصدق ثم قال :

« لا حيلة لنا إلا أن ننقل المصابين إلى أقرب وحدة من وحدات الجيش الثالث ، متى ستنتهى من إسعافاتك ياطارق » ؟ ، « بعد نصف ساعة يا فندم » .

« اذن جهز نفسك يا أسامة لتنفيذ تلك المهمة » . . بعد فترة صمت رفع رأسه ناحيتنا قائلاً :

« الفترة القادمة فترة شاقة . . أكيد ، لزوماً من يبقى أن يكون صحيحاً قوياً » .

تولى أسامة ومجموعته مهمة نقل الجرحى إلى أقرب وحدة ، كانت تبعد ثلاثة كيلو مترات . . بدا الهواء ساكناً وكأنه كف عن إحداث أصواته المعتادة فى مثل تلك الساعة من الليل،وفى تلك البقعة من الأرض الفسيحة .

خطتهم حمل المحفات الثلاث وفوقها المصابون فى الوضع نائماً ، يزحفون والوضع منثنيا ، يعدون . . لا يهمسون ، يكادون لا يتنفسون أملاً فى تحقيق هدفهم دون أن يلحظهم أحد فى برج المراقبة الذى شيده العدو منذ فترة قليلة حول موقع الكتيبة . أحد الجرحى قفز من فوق محفته مُصراً على الزحف معهم ، إشفاقاً على زملائه وإصراراً على متابعة المعركة التى أصيب فيها ، فى البداية رمقه أسامة وسبه كى يعتلى المحفة ثانية . . ولا وقت للمناقشة ، نفذ الجندى على مضض .

قبل أن يتابعوا ثانية ، تأمل أسامة من خلال ظلمة الليل بعينيه الامتعين كعينى النمر ، تأمل مركز المراقبة الخشبى الذى وضعه الأعداء خلال الأيام الأخيرة ، قال :

« سوف يأتى دورك » . . تابع رجاله حتى كانت مفاجأة جديدة فاق أحد المصابين الذى كان مخدراً وصامتاً طوال الفترة السابقةوماأن تلاشى أثر المخدر قليلاً وهم لا يحملون مخدراً معهم ، المصاب يلوك بكلمات غير مفهومة إلا أن

نبرتها العالية قد تفضحهم وتكشف أمرهم ليتعرضوا فوراً لرشق الرشاشات القريبة جداً منهم .

إذا بأسامة وقد أطلقوا عليه لقب « الذئب » يضربه على مؤخرة رأسه فصمت المصاب ثانية،تابعوا زحفهم . لم يكن قد مضى من الوقت الكثير بعدما عدت إلى الرفاق أجالسهم صامتاً ، كل منا يرتمى إلى مساحة من الأرض تعادل طول قامته إنشغل أندريا فى نفسه ، يعيد تهذيب شعره وهندامه عادته بعد كل فترة يتفرغ لرفع حبيبات الرمال من ثنايا جسده وشعر رأسه معبراً عن إعتراضه ، كل مرة يقولها :

« شوك » أشعر بها إبر فى قفاى وعينى لن أتركها ! » . اضطررنا أخيراً إلى القبض عليه . . وإجلاسه عنوة بعد أن أهاج الأتربة والرمال علينا وعلى عيوننا بتلك الدفعات المتتالية لكل قطعة من ملابسه الداخلية . حاصرناه فى ركن بعيد عنا ليمارس هوايته فى أضيق الحدود . دخل العريف عوض ، ألقى السلام ، جلس على ركبتيه بحيث كان واضحاً لنا ونحن فى رقدتنا . . قال ، قالها بعد فترة صمت قصيرة :

« يا جماعة . . علمنا باستشهاد زميلان الآن » . . سألناه عمن يكونان . نهضت مفزوعاً :

« متأكد ، أم أحاول معهما » .

لم يرد على أى سؤال ولم يزد من انفعاله إجهاداًواشفاقاً علينا إلا أنه كررها باصرار :

« الشهداء لزوماً يتم دفنهم الآن » ، وكأنه لا يريد أن يترك فرصة لتفسير آخر أو لقرار غير الذى جاء من أجله . . بعد فترة صمت تشجع صيام :

« ندفنهم . . حرام . . من يعلم » ؟ تابع أندريا وقد نهض فعلا :

« ربما يأتى دورنا بعدهما . . أنا وقفت ! » . لحقه جابر صامتاً ، عندما تقدم قال بصوت خفيض : « توكلنا على الله » . . قلت وأنا أثقل الخطو عمداً :

« سوف أذهب معكم لكن إعفونى من تلك المهمة . . هذا الموضوع ثقيل علىّ

نفسى ، لن أقدر عليه » . . لم أسمع ردا ، سرت خلفهم وأنا أتابع مقدمة حذائى الجرباء ، بدأوا العمل بلا طقوس ولا تراتيل ولا عويل ولا مقبرة ، خلال دقائق قليلة اختاروا إحدى الحفر الكثيرة فى الوحدة ، لفوا كل شهيد فى بطانية ، كوروهما حتى اختفت وجوههما اللامعة وسط الظلمة . . توقف جابر عن إهالة الرمال فجأة . . وكأنه تذكر أمراً : « نقرأ الفاتحة يا جماعة » . قرأت معهم وأنا بعيد عنهم . . قبل عودتنا شعرت برجفة وبخيوط من العرق البارد فوق جبهتى وأنفى أحكمت الزنط أكثر لعله يحمنى من تلك الرعشة المفاجئة . فشل فى ذلك كما فشلت فى متابعة مشهد إهالة الرمال فوق الشهديـن ذهبـت إلى العقيد أخبرته . . سلمته اللوحتين المعدنيتين المحفور عليها الرتبة ، الرقم ، الاسم لكل منهما . شاركت اجتماع القائد مع السرايا وحضرت مناقشاتهم معاً . قال الرائد سعد ردا على سؤال العقيد : « بعد حصر المعلبات التى لم تحترق وجراكن المياة ، يصبح رصيد كل فرد فى الوحدة كالآتى . . نصف علبة فول مدمس عبوة ١٢٥ جم وربع باكو بسكويت وثُمن لتر ماء يومياً يا فندم » . .

علق العقيد شارداً : « يجب أن نجهز أنفسنا على ذلك ولفترة يعلمها الله . . أظن من الحكمة الآن محاولة الاتصال بقيادة الجيش الثالث لمناقشة هذا الموضوع . . الأهم يجب أن نعتمد على أنفسنا . . لكن كيف ؟؟ هذا هو السؤال الواجب على كل منا التفكير للإجابة عليه » . إنتظر الجندى محمود خريج كلية العلوم حتى انتهى القائد من كلامه ثم قال :

« عندى فكرة غريبة » . . نظر إليه العقيد صامتاً إلا أنه منتبهاً له : « ماذا لو قطرنا مياة القناة المالحة » . ابتسم الرائد سعد ، قال :

« بل فكرة مجنونة يا محمود وليست غريبة » العقيد مازال يتابع باهتمام : « وضح فكرتك يا محمود كى نفهم ونساعدك » . « سوف أقوم بتصميم الجهاز المطلوب . . الفكرة النظرية أعرفها تعتمد على فكرة تكثيف بخار المياه بعد الغليان » . أومأ العقيد برأسه ثم قال :

« موافق » .

ثم نظر إلى الرائد سعد آمراً :

« اجلس معه وسهل له مهمته لتوفير كل المطلوب من أفراد ، وأدوات وخلافه » .

عندما عادت مجموعة « الذئب » مع نسمات الفجر الجديد وقد أنجزت مهمتها بنجاح ، كانت المفاجأة أن عاد أسامة القرشى محملاً بالخير . . دخل إلى العقيد ومعه صندوقين من المعلبات وجركن مياة عذبه ، فى الخارج استقبله الجنود مهللين وبفرحة عارمة وقد عرفوا تفاصيل ما حدث وما فعله الذئب ومجموعة وهم فى طريق عودتهم . . حيث ترك الذئب أفراد المجموعة ، اتجه إلى برج المراقبه الإسرائيلى القريب ، انتظرهم حتى بزوغ الشمس لليوم الجديد . كان فى استقبال جنود البرج ، أفرغ مدفعه الرشاش فيهم . . واغتنم ما معهم من طعام ومياه !! داخل الحصن استقبله العقيد بكل الشوق والترحاب معانقاً ، استمع إلى تفاصيل ما حدث باهتمام ، ابتسم موجهاً حديثه إلى الرائد سعد :

« ضُم الغنائم إلى رصيد التعيين » . . ثم تفرغ العقيد إلى ورقة بيضاء بين يديه يخط فيها إشارات وأسهم وتقسيمات ، لقد قرر إعادة الوحدة على أساس الوضع الجديد والاحتياجات الجديدة .

قرر تقسيم الأفراد إلى مجموعات ، مجموعة تقطير المياه وقد دعم محمود بخمسة أفراد لتنفيذ فكرته . . مجموعة الهجوم المتقدم بقيادته شخصياً للعمل فى صد أى هجوم مضاد متوقع . . مجموعة التموين ونظراً لتجربة الذئب أسامة قرر أن يكون قائدها ، وقد شاعت بين أفراد الوحدة من بعد وتكرر إختراق الذئب لخطوط الحصار حتى أنه وصل إلى أقرب وحدة بالجيش الثالث لأكثر من المرة وتعود الجنود كلما قابلوه أن يسألوه :

« ما الأخبار ؟ ماذا سنأكل اليوم ؟! » . ثم كانت مجموعة الحراسات ومجموعة الخدمات وأخيراً مجموعة الاتصال والمجموعة الطبية والشئون الادارية . أما مجموعة ربيع وصيام فقد كانت عندها فكرة أخرى،إمكانية الاستفادة من المعلبات المحترقة . ظلا يبعثران فى تلك المعلبات وقد غلبت رائحة الذرة المشوى كل الروائح وكل المعلبات .

تخيرا علبتين :—

« أنا علبتى كانت أرزاً باللحم » .

« لا توجد معلبات أرز باللحم ، كلها فاصوليا باللحم » .

تدخل أندريا بجدية :

« أرنى علبتك يا ربيع » . . تذوق ما عنده » . . تذوق مرة ، سعى إلى صيام :—

« والآن أطعمنى يا صيام من علبتك » . . بعدها أبدى علامات الحيرة ثم قال :

« لم أتأكد يجب أن أعيد المحاولة »

إنتبه ربيع للعبة . . رفض !

ضحكوا جميعاً عندما تأكدوا أن المحتويات المحترقه خلصت ولم يستطيعوا معرفة هويتها . . . .

خرجوا إلى الرفاق ، قصوا ما حدث معهم وأخبروهم عن الكنز . . مخزن المعلبات المحترقة !

عندما وصلوا إلى حيث مجموعة محمود إنشغلوا معهم . . شاركوهم ، قال محمود :

« مشكلتى الحقيقة هى الكبريت يا جماعة . . أرجوكم اسحبوا كل الكبريت من أى فرد بالوحدة » .

عاد وانشغل ثانية فى تصميم جهازه وقد جمع كل ما يصلح لإنشائه ، من صفائح ، أوعية معدنية ، ومواسير ، كل ما يصلح أن يكون وقوداً . كانت أشق المهام من بعد ، هى مهمة نقل المياة من شاطىء القناة حتى موقع الجهاز . إنهم فى حاجة إلى كميات كبيرة قدر منها أعلى النيران ، وقدر منها يلقى فوق المواسير مواسير التكثيف . انقضى نصف النهار عندما أتم محمود تركيب جهازه وتشغيله لخمس ساعات ، تغلى المياة ويلقى على المواسير المياة الباردة . . لثلاثمائة دقيقة يتابع محمود نتائج فكرته وبشائر فرحته .

وكانت لحظة مجنونة ، فيها ظهر بريق . . بريق عكس شموس الدنيا .

اتسع البريق حتى كانت نقطة مياة لينة مجنونة هى الأخرى تسقط فى زجاجة الجلوكوز الفارغة .

إقترب محمود منها ، اقترب أكثر من فوهة الماسورة إلى الوليد الجديد ، إلى النقطة التالية . نجحت الفكرة إذن !!!

اضطرب ، لا يدرى ماذا يقول ، وماذا يفعل ؟! ، كل ما حرص عليه ألا يقترب أكثر من النقطة الجديدة فتتلاشى عند أطراف أصابعه ، أخيراً تجرأ ونطقها : « مبروك يا جماعة » .

ظن أنه يحادث نفسه ؛ إذا بأفراد المجموعة تُصرخ ، أحدهم يقفز لأعلى ويهبط مقرفصاً على الأرض ، آخر يغنى :—

« قولوا لأبوها إن كان جعان يتعشى » . ثالث ضحك ، ضحك ضحكات هستيرية . علم القائد بالخبر ، تقدم مبتسماً ليرى رؤية العين،استقبله محمود فرحاً ..

« نجحنا ، نجحنا يا سيادة العقيد » . . « ربنا معنا ، استمر ، الحمد الله ، أعطنى التمام عند الغروب ، وبالمناسبة تطفأ النار قبل الغروب ، مفهوم » . . « تمام يا فندم » .

ما أن لمحة محمود التقط تلك الغلالة التى كست عينى قائده ، لم يجد بُداً أن يبكى ، فبكى بصوت مرتعش وجسد مرتعش وبفرحة حقيقية .

إنزوى العقيد بعيداً عن الجميع ، رغب أن يُشعل سيجارة وأن يجالس رأسه ، سرعان ما تذكر وقت آخر إجازة له ، حين استقبله طفلاه ، عاتباه لتأخره عن ميعاد إجازته . تعمد ألا ينظر إلى عينى زوجته المعاتبة ، إفتعل انشغاله بعناق طفليه وقد قبلا اعتذاره ، أما الزوجة التى تحاول إخفاء بسمة وترسم غضبه قالت : « ولو » . . .

ثم اندفعت إلى المطبخ لتجهيز الطعام الساخن والحمام ، عندما انفردا معاً فى غرفة نومهما ضحك قائلاً :—

« أمازلت غاضبة » . . « قلقه ، لست غاضبة . . فقط » . . « إذن لتعرفى أننى سوف أعود إلى الوحدة فى الصباح الباكر » . لم تجد ما تُعلق به ولم يزد هو أكثر . عندما انتبه على صوت عال يلهث نحوه ، كان جندى المراقبة يخبره أن العدو يجهز لهجوم مباشر .

انتبه العقيد قال :

« إذن سوف أتقدم مع مجموعتى . . يجب أن نبدأ نحن بالهجوم والتقدم نحوهم ، وبكل الأسلحة وأكبر كمية من النيران . . نريدهم أن يعتقدوا أن لدينا رصيداً كبيراً من الذخيرة والقدرة القتالية » .

بدأ الضرب العشوائى الغامض يمسح أرض الكتيبة . العقيد مع مجموعة تبادل التراشق مع العدو لساعتين . بعدها نجحوا فى إيقاف تقدمهم ، وفى تعديل فكرة إقتحام الموقع . عندما عادت مجموعة الهجوم كان العقيد محمولاً ، « إبراهيم عبد التواب » مخضباً صامتاً . . لا يتكلم ولا يتألم . .

إندفعت نحوه ، وضعت البطانية الصوفية فوقه ، ثم بطانيتين حاولت تركيب جهاز نقل المحاليل ، فشلت فى العثور على وريد واضح فى ساعدى الرجل ، حاولت فى وريدى الرقبة ، أخيراً تم . إلا أن الرجل نظر إلىّ بالنظرة الهادئة المعتادة قال :

« لقد انتهى كل شىء ، لا تحاول ربنا معكم ــ أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول . . . »

« أنتم السابقون ونحن اللاحقون » .



« الذئب يعرف الوفاء أيضا »

ثانية قرأ أفراد الوحدة القسم ، وزعت قصاصة الورق الصغيرة بعد أن قرأها الرائد سعد « القائد الجديد » . . . (أقسم بالله العظيم أن أظل محتفظاً بالأرض مخلصاً لمصر مضحياً فى سبيلها بكل غال . . زاهداً من أجلها بكل نفيس والله على ما أقول شهيد) .

كان لقراءة القسم هذه المرة مذاق ومعنى آخر . . البعض قرأها كأنها لأول مرة ، آخرون يشعرون وكأنهم يقرأون أحداثاً مضت وقادمة لا محالة ، بعضهم قرأها بعينيه فى المرة السابقة هذه المرة قرأوها أكثر من المرة وبصوت عال كأنهم يلصقونها فى جوف رؤوسهم . هذه المرة كانت للكلمات معنى آخر . بات الصراع مباشراً بين الجنود والزمن الغامض . . من جديد بدأ الرائد سعد فى دراسة الموقف ، شعرنا وكأن خروج النفس ودخولهمهمة تُثقل كاهلنا .

تأكد القائد الجديد من أن المياه غير المالحة التى ينتجها الجُندى محمود زجاجتين جلوكوز فى اليوم . . فقط ، ومع ذلك فشلنا فى العثور على مكونات جديدة تصلح لصنع جهازاً جديد ، بعدما تحطم الجهاز القديم ، نتيجة القذف المباشر . . عجزنا فى الحصول على بعض المواسير والصفائح . ساءت أحوال

التعيين اللازم لنا ، الوحيد الذى فلح فى إلقاء شىء ما داخل جوفه أكثر من رفقائه هو ربيع ، لمحته يُلقي شيئاً ما بين شفتيه ويجرشه .. أخيراً ، أخبرنا بالسر : .. « عرفتم قيمة اللقيمات التى دفنتها فى الرمال » . وأخيراً عفا عنا .. شاركناه وألقى إلينا ببعض اللقيمات !! تُرى لماذا تذكرت ذلك القصير الفظ ، المحتقن الأذنين إنفعالاً وغلظة ، المحترق البشرة من طول المدة التى يقضيها ذلك الرقيب « ريان » تحت الشمس فـى ساحة تدريب مركز الخدمات الطبية ، معنا ، مع من قبلنا ، ومن سيأتى بعدنا ، حتى بات رمزاً للقسوة والفظاظة . كان يجمعنا تحت الشمس المتعامدة على رؤوسنا ويصيح « صفاً » « انتباه » بلا ملل لعشرات المرات .. دوماً ،يختمها بقوله :

« والآن حمام شمس لمدة ساعة » .. وربما نقضى أكثر من الساعة بكثير ، هذا الرجل له حضور غريب أتذكره الآن وقد تعلقت أرواحنا بلقيمات عزيزة وبرشفه ، كما كان ليل .. نهار له وجود ، طيلة الخمسة شهور التى قضيتها فى المركز لم يمرض ولم يصادف مشكلة فى حياته تجعله يختفى عن أعيننا إن لم يكن بجسده نستحضره .. كظاهرة غريبة .. من قائل « أنه سعيد بتعذيب شباب مثل الورد مؤهلات عُليا .. أطباء » .. ومنا من قال : « هذا الرجل مُعقد لقصر قامته ولنحافته ولولا الثلاث شرائط على عضده لضربناه حتى يعرف قوته الحقيقية » !! .

وسرعان ما يتحول الحديث إلى جُملة أسئلة بغير إجابة .. هل الرجل عزب أم متزوج ؟ هل هو من المنوفية فهم أكثر أهل الأرض عشقاً للحياة العسكرية وللميرى ! هل شارك فى حرب ٦٧ فعلاً ؟! عندما أمرنا بالاصطفاف على شكل مربع ناقص ضلع .. وقف فى المنتصف أخبرنا بتمام الفرقة التخصصية ، وأنه من حقنا إرتداء ثلاثة شرائط لرتبة « رقيب طبى » .. فى ختام كلمته وبصوت خفيض حزين قال : « جاء دوركم تشرفونا ، نحن فى ٦٧ لم تتح لنا الفرصة .. صدقونى ، أنا فى حرب ٦٧ لم أحارب أنا عملت حانوتيا » . صدقت يا رقيب ريان جاء دورنا !

نجح المقدم حسين فى مهمته الانتحارية اليومية فى نقل قدر لا بأس به من

المعلبات والمياه ، ينقلها فى زورق بحرى من إحدى المواقع البحرية التى تسيطر عليها قوات الجيش الثالث الينا ، فى رحلة غير مضمونة ، كان علينا أن ندخر من رصيد اليوم لأيامنا القادمة على قلة ما يصلنا ، ربما يضرب ذلك الزورق فى رحلة الغد أو بعد الغد ، لذا أسميناها . . « الرحلة الانتحارية اليومية » عندما تقسم علبة الفول المدمس على خمسه تصارعنا عليها ، اقترحت عليهم حلاً إرتضوه ، أن نقسم ورقة إلى خمس مربعات متساوية الحجم ولكل منا ورقة يأكل بها . . بذا نضمن عدم التهام العلبة فى حفنة واحدة لأحدنا . . هكذا أصبحت بعد أن عشت تجربتى الأولى مع طاقم عتريس الأول فى أول وجبة لى معهم عندما التفقنا حول القروانة نأكل اليمك والارز . . إنتبه بكر إلىّ،ابتسم :

« هنا يا وحش لا خجــل . . وإلا تموت جوعاً وليس بالرصاص » . نعم تذكرتك يا بكر . . لا خجل وإلا الموت جوعاً . كما التقطت أذناى أنغام الناى الحزين بين شفتى « بكر » بعد كل وجبة . . يومها قال موجها حديثه إلى كى أسمعه لا لأن أبدى رأياً :

نعيش مثل كل دول العالم المتقدم نحب . . نسمع الموسيقى . . نلعب ونقوم بالرحلات . . مثل . . . » ليقاطعه وهدان بصوته المتميز :

« بدأ بكر يحلم يا جماعة ، احلم يا بكر . . احلم حتى تموت وأنت مفتوح العينين » !!

لم يمت بكر وهو مفتوح العينين ، عندما صدرت التعليمات بالتدريب على مدفع جديد . ، خلال فترة وجيزة انتهى التدريب على السلاح الجديد . . شغلنا سؤال مشترك :

« بماذا نسمى الرفيق الجديد » . . انتهينا إلى الموافقة على رأى وهدان :

تخليداً لذكرى عتريس الأول . . نسمى المدفع الجديد بـ عتريس الثانى » . . بدأت الكتيبة فى التحرك إلى الجبهة ثانية ، إلى موقعنا الأصلى . . قائد الكتيبة فى السيارة الجيب بالمقدمة ، من خلفه أعداد كبيرة من العربات التى تزف العريس الجديد ، وهو تشبيه بكر قبل أن يركب داخل عربة الشيئون الادارية .

كل ما نخشاه أن ترصدنا أجهزة العدو . . وهو ما حدث . فـور وصلنا الموقع ، إستقبلنا بالقذائف ، سارعنا بالمشاركة وبادلناه الرشق وبالمدفع الجديد . . يتابعون من حولى :—

« هذه طلقتهم »

« تلك الدانة من عندنا . . بدأنا الرد عليهم » .

« هل تلاحظون ، إنهم يستخدمون طريقة السلم فى الضرب طلقات متتالية على خط أفقى ، آخرى متتالية على خط رأسى ، ثم أخرى أفقى ! » .

« إنهم يمسحون المنطقة . . سترك يارب » .

« أبو جاموس مشارك يا جماعة » .

بعد أن هدأ القذف المشترك ، إجتمع الرفاق إلا بكر . . وقال وهدان :

« سوف أخرج للبحث عن بكر حتى تجهز لنا لقمة يا أبو غالى » . . . إنقضت فترة قصيرة ، دخل علينا أحد الجنود ، وقف ولم ينطق لاهثاً . . سألناه : « ماذا بك . . تكلم » ؟!

« بكر . . بكر يا جماعة » .

سألناه تفصيلاً ، لم يرد ، خرج رده فى صوت مختنق لنحيب مكتوم . . لا أكثر . صدرت الأوامر بدفن بكر مع اثنين من الشهداء بالمؤخرة،حتى يتم نقلهم إلى مقابر الشهداء !!

نجح وهدان فى إنجاز المهمة الصعبة ، تعامل مع جسد بكر الهامد . . لفة ببطانية جديدة . قرأنا الفاتحة . الشيخ حسن واعظ الوحدة ردد قائلاً :

« الله أكبر . . يا جماعة » . . . ولما لم يسمع رداً . . كررها بصوت عال ، . لم يكف قبل أن سمعنا نردد :

« الله أكبر . . الله أعظم واستغفر الله العظيم » . . عدنا إلى الملجأ ثانية كلنا أدار ظهره كى لا يرى مرقد بكر . . ناى بكر المعلق . . مازال .... طلب منى القائد الجديد ــ الرائد سعد ــ الموقف أفدته بنقص شديد فى بعض مستلزمات الاسعاف السريع ، هز رأسه صامتاً ثم أدار وجهه إلى الذئب صائحاً

وكأنه أدار فكرة ما فى رأسه ، قال له :

« ماذا تقول .. هل جُننت إلى هذا الحد ؟! » .. ببساطة رد أسامة القرشى :

« تعودت على ذلك،من قبل قابلتهم فى جزيرة شدوان،الآن وهنا فى كبريت نجحت من قبل » ..

« لن تسلم فى كل مرة ونحن فى حاجة إليك » .. « العمر واحد يا سيادة القائد » .. « ولا تنسى أن معنى ذلك أن العدو سينتقم بأسلوب أشد شراسة وربما أشرس من كل أساليبه السابقة » .. « ماذا كان فعل فى شدوان ؟ » ثم ضحك الذئب قائلا :

« جزيرة شدوان لم تكن يوماً أكثر من إستراحة من إستراحات الملك .. يقضى فيها ساعات المتعة . بها كهف طبيعى ، فى أحشائها شيدوا البار فى هذا الكهف .. نحتوه من الصخور ذاتها ، الوحدة المصرية التى تحتل الجزيرة لم يزد تسليحها عن التسليح الفردى المعتاد .. مع ذلك فوجئنا بالقذف المباشر بالمدافع والطائرات لمدة عشر ساعات .. بعدها حاولوا إتمام عملية عسكرية بالقوات الخاصة لهم .. تشابكنا بالسلاح الأبيض .. وبالمواجهة وجهاً لوجه بعد أن نفدت الذخيرة منا . فى فجر اليوم الجديد التالى شعروا باليأس من محاولتهم التليفزيونية ، فالجزيرة لا تُحقق نصراً عسكرياً حقيقياً ولكنها تعنى بالنسبة لهم خبراً إعلامياً جديداً يؤكد سيطرتهم على المنطقة » .

علق الرائد مبتسماً :

« هل تحاول إقناعى » ؟!

« بل أؤكد لك إنْ كتب علينا الموت ، أن نموت بشرف بدلاً من الموت جوعاً .. » .

وقتها صمت القائد بما يعنى الموافقة بشكل ما . فى منتصف الليل تقدم الذئب نحو العدو بدأ البرج يتضح له ، حفظ الطريق من قبل ، فصعد ومعه مدفعه الرشاش إلى أعلى البرج الخالى .. رقد بقية ساعات الليل مفتوح العينين

يسترق السمع قابضاً على ما فى مثانته ، تعود الحفاظ على ما فى جسده من مياه . . . !

عندما جلس إلى أرضيه المكان الخشبية تلفح ببطانية تركها أحدهم ، عيناه تحلقان وفوهه رشاشة نحو الدرج الأول للسلم ، مع شقشقات الفجر إنتبه . . كان صوت أقدام تتقدم ، بدأ وكأنه شعر بدفء أجسادهم يقترب ، سمع أحدهم يدندن،آخر غنى على دندنته . . بدأوا يتضحون جلياً له . أربعة أفراد أحدهم يحمل صندوقين من المعلبات ، آخر يحمل جركنين من المياه ، حبس أنفاسه حتى لا ينتبهون له . .

إقتربوا أكثر وأكثر . . .

يمكنه الآن أن يضربهم ، إلا أنه إنتظر أفضل الأوضاع . . أصبحوا فى حضنه . . مع صرخة عالية ملؤها الغل والصبر والحرمان والثأر ، مع صرخة هى كفن أجسادهم ضغط على زناد مدفعه الرشاش . سقطوا !! لمح أحدهم إدعى الاصابة . . كشف لعبته ، عزله من سلاحه ، أمره بحمل الصناديق والمياه . . استقدمه ، سار خلفه . . وحتى الوحدة المحاصرة . . ما فتىء إنتشر الخبر ، خرج الرجال لتحيته . . « الله أكبر يا ديب » . . « ضمنا أكل اليوم » !!!

« عقبال التالية يا ديب » . . داخل مكتب الرائد سعد تم تسليم الأسير والأغذية والمياة فضحك الرجل وقال :

« الخير على قدوم الواردين » . . علق الذئب بخبث ذكى :—

« الوارد . . أنا أم الإسرائيلى » . . ثانية أعاد القائد حساباته بعد إضافة التعيين الذى إستقدمه الذئب كما توقع الرائد سعد حدث . .

بعد إنقضاء نصف النهار الجديد اشتعلت الرمال ناراً بعد الضرب العشوائى المباشر . كانت الخسائر إصابة الجندى « عيسى » ، وتلف جهاز الاتصال الوحيد بالوحدة . الآن عُزلت الكتيبة عن العالم تماماً . . قضيت بقية ساعات النهار داخل الحصن مع « عيسى » ، حاولت معه بكل ما هو متاح ، الرفاق لم يتركونا وحدنا . . كثيراً ما يحضر أحدهم ليعرض رغبته فى تقديم أية مساعدة ، وعندما يسأل عيسى عن حاله يرد مبتسماً :

« وفرت لكم وجبه يا وحش » . . . ونبتسم معه . . قرر الرائد ضرورة القيام بهجوم إنتقامى مضاد مقابل ذلك الهجوم حتى لا يعتقد العدو أننا بدأنا نستسلم !!

« لقد انتهيت من خطة عمل إنتحارى من سينفذها ؟». لم يجد مشقة فى عدد المساعدين له ، وجدها فى إختيار بعضهم دون البعض الآخر . . دخل أحد الجنود قدم التحية العسكرية قال :

« نقطة الملاحظة والرصد أفادت بتلك الإشارة « قرأها الرائد سعد ، ثم إبتسم :

« الرصيد الاستراتيجى لقوات العدو تم استعاضته منذ قليل » . علق الضابط سامى حجازى قائلاً :

« رزقنا يا فندم » . . « إذن الليلة والله معنا » . !

قالها القائد وحدد مهمة كل فرد ودوره فى المهمة . . أهم ما سأل عنه قبل تحرك المجموعة ليلاً :

« معك كبريت يكفى » . . « معى يا فندم » . .

مضت نصف الساعة ربما أقل ولكننا شعرنا بها طويلة طويلة ، حتى سمعنا صوت رشاقات . إبتهلنا إلى الله . . لم يجلس الرائد سعد إلى الأرض ويضرب بكلتا كفيه الرمال ويتنفس بعمق وبشدة إلا بعد أن لمح وهجاً نوراً أضاء كل الوجوه من حوله . . تم تفجير مستودع وقودهم ! .

سرعان ما استتبع بهجوم بالدبابات منهم . . مجموعة أسامة تقدمت لها برفقه الضـــابط محمود صديقه الحميم ، أخيراً نجحوا فى إيقاف الهجوم مضت فترة حتى علمنا بإستشهاد محمود وإصابة الذئب .

انتشر الخبر ، تجمع الجنود من حوله وقد بدأت أضمد عينيه ، وحقنته بالحقن المناسبة لتلك الحالات.أخيراً اضطررت إلى حقنه بحقنة مهدئة عندما هاج كثيراً فور سوءاله عن الضابط محمود وقد علم باستشهاده .



« الطيور لا تأكل عشها »

شعرت أننى بحاجة إلى هزة عنيفة ، أنا ومن حولى وقد مللنا الضحك والبكاء المتشنج . تعليق فج سخيف يُضحكنا ، ينال من هدوئنا المغلف ، هوس نفوسنا البادى فى صرخات حواراتنا الممتدة ، وفى صمت بعضنا الطاغى ، نعم فى الصمت والصراخ معاً ! كليهما . اقتسم أفراد كتيبتنا المحاصرة لأكثر من المائة يوم حتى بدأنا نعجز عن حصر عددنا . . قد نبكى إذا ما تشاجرنا فى وحشية ، سرعان ما نغضب وبسرعة نهدأ معاً !

ذات مساء شغلتنى فكرة وسؤال ، الكحول الأبيض ينقص من الجيراكن الخاصة به ، بمعدل مرتفع وأعلى من معدلات التبخر ، وقد ظننت فى أول الأمر أنه البخر حتى ضبطته يبكى بصوت مخنوق ، لعله يرجو إخفاء شيء ولم يقدر ؟

الجندى « علوانى » أحد أفراد المجموعة الطبية ، وثقت فيه وآمنته على عهدة النقطة ومن ضمنها الكحول الأبيض فإذا به يمزج قدراً منه مع إحدى زجاجات الجلوكوز ثم يتركها ليوم وربما لأكثر ، بعدها يشربها ويبكى ! إعترف لى بذلك وهددته بمحاكمة عسكرية ميدانية لو عاد إلى فعلته تلك . . فولول وتشنج ، وكاد يُقبل حذائى ورائحة الخدر تفوح من كل مسام جلده العطنة الذى

ما عاد يعرف للماء وللاغتسال طريقاً . ليس وحده بل أغلبنا إلا بعضنا يملك القدرة على صب مياه القناة المالحة الباردة فوق جسده ولا يرتعش ويمرض . كانت أغلب الأعراض المرضية التى يشكو منها الجنود هى أعراض التهابات وأمراض جلدية فضلاً عن الأعراض العصبية .

ينبثق ضوء النهار فنفرح لشيء من الدفء يدغدغنا ، ينقضى الليل باكراً فنغوص داخل جلودنا. هكذا تمضى بنا الأيام الثقيلة . . أغنية نسمعها ولعلنا سمعناها مئات المرات من قبل لم ننتبه لها ، أما الآن . . وحدها كفيلة أن تذرف الدموع من خلف جفوننا وكأن عيوننا أصبحت ضروعاً نحلبها فتدمع .

أهكذا أصبحت حواسنا على حد سيف ماذا . . فى يد أحدنا حبة طماطم طازجة ؟! »

المشهد جعلنا نضحك وكأننا السكارى ، لا نجد ما نتفوه به إلا تعبيراً عن الدهشة قائلين : —

« طماطم . . طازجة » . . « حبة طماطم فى كبريت » ، « الشهداء نبتوا يا جماعة »

ما أن اقتحمنا الجندى « فكرى » حتى هاجت هواجسنا، إتهمناه أخيراً باخفاء كنز فى الصحراء . . افتعلت إتزاناً فى لسانى وتفكيرى فسألته :

من أين أتيت بها ، كيف حصلت عليها ونحن ها هنا ؟ !! انتقلت عدوى الضحك إليه ، ظل يضحك حتى سقط على الأرض ، حاول أن يتكلم ، عنده ما يقوله، عجز فى أول الأمر . . إنتهى إلى قرار ارتضيناه على أمل فى مشاركته بعد قليل فى ثمرات جديدة : « بعد أن أنتهى منها . . أحكى لكم حكايتها » . بعضنا بالغ فى تدخين الأعشاب المجففة ، وقد صنعوا منها سجائر أو ما يشبه اللفائف التى تُخرج أسود قىء الرائحة والمذاق . . فكانت الضحكات المخلوطة بالسعال الجاف الخشن حتى يتقيأ إفرازات معدته . . مشهد متكرر لا يشغلنا ولا يقلق صاحبهُ . . . انتهى فكرى وقص الحكاية :

« تعودت أن أتبرز فى إحدى الحفرات البعيدة مثلكم ، وفيها أيضاً تعودت

التبول وعليها سقطت الأمطار التى هطلت خلال يناير الفائت فكانت الثمرة ؟ » . لم نفهم فإذا به يزيد دهشتنا ويؤكد : « وجدتها تنمو داخل إحدى زجاجات الجلوكوز الفارغة والتى كنت أتشطف ببعض المياه التى أحملها فيها ثم أتركها . . هناك أيضاً فى الحفرة ؟ » ولأننا لم نصدقه نهض،أمرنا أن نتبعه إلى حيث حفرته الكنز رأيت وأنا أدير الفكرة فى رأسى راجياً حبه جديدة تنمو داخل زجاجة أخرى . . سألونى تفسيراً لم يكن من الهين علىَّ أن أعثر على تفسير يرضينى ويرضيهم حتى وجدتها :

« يا جماعة التفسير الوحيد أن بذور الطماطم لا تهضم فى الأمعاء ، وجدت بيئة مناسبة فى الحفرة فنمت والتوت من خلال عنق الزجاجة لتتابع نموها » ولنعود جميعاً إلى ضحكاتنا الهستيرية .

كنا نبكى وأقوانا اتزاناً من يدمع بلا صوت حتى لا يُزعج غيره ، كلما سمعنا . « غريب » وهو يدندن موالاً بذاته وأغنية بذاتها من أغانى « ولاد الأرض » . كلما كان الوقت مناسباً من ليل أو نهار يُسمعنا غريب الموال . . يقول ويكرر وحفظته عنه :

« تعالى يا طبيب المبالى عند بيتنا دلى . . . واكشف على الجرح اللى لو زمان دلى .

وإذا كان دوايا على المخلوق يا ذلى . . . وإذا كان دوايا عند الله أرفع إيدك يا طبيب .

وخلى المقابر . . المقادير تاخد حدها منى . . . . .

السبع سبع . . ولو قلت مخالبه .
والكلب كلب ولو طوقتو بالذهب
لو يعلم الخمر بأن الندل يشربه .
ليحلف الكريم ما عاد يطرح العنب .
من عاناك عانية . . واجعل عيالك عبيده .
ومن ضاداك ضادية روحك ماهش فى إيده .

ونبكى أكثر إذا ما غنى لنا ــ بغير السمسمية ــ كما سمعتها من فرقة أولاد الأرض فى مدينة السويس ، يقول ونرد خلفه كل شطرة :

فات الكثير يا بلدنا .
مابقاش إلا القليل .
إحنا ولادك يا مصر .. وعينكى السهرانين .
نصرك أصبح نشيدنا .. واللى يعادينا مين .
فات الكتير يا بلدنا ...
الهمة يا شبابنا ..... القوة يا جنودنا .
القوة يا جنودنا .. نشق الليل بسلاحنا .
نجيب فجرنا بسلحنا .. ونجيب النصر هدية لمصر .
نكتب عليه أساميا ..
بينا يا للابينا .. نحرر أراضينا .
وعضم إخواتنا ... نلموا .. نلموا ..
نسنوا نسنوا .. ونعمل منه مدافع وندافع .

ونجيب النصر هـديـة لمصر وتحكى الـدنـيـا عـلـيـنـا
بـكـرة يـا بـلـدنـا ح نـعـوض الـلى فـات
ح نـكـتـر الـمـصـانـع ونـخضر المـزارع
ونجيب النصر هـديـة لمصر تـسـعـد بـيـه اجـيـالـنـا

أغلب أجهزة الراديو ما عادت تعمل ، بمضى الوقت فرغت شحنتها ، وفشلت معها كل محاولات إعادتها إلى سابق حالها .. بوضعها تحت أشعة الشمس فترة ، بمحاولة وضعها فى مياه تغلى ونادراً ما يتاح لنا ذلك . فكان علينا أن نخلق من احاديثنا ما يروح عنا بديلاً . « عامر » يملك موهبة غريبة . لعله يملكها من قبل والفرصة أتاحت له أن نعرفها عنه أخيراً .. باتت لعبته التى تسرى عنه وعنا أحياناً ، هى مع الزمن شغله الشاغل ، حساب الوقت الفائت

وتأريخ الحوادث وما كان يوماً بيوم ومن الذاكرة يكررها حتى كدنا نؤكد أنه يتعمد تسميعها لنا إختباراً لذاكرته .

الرجل أحال الزمن الذى أصبح بلا مقاتله مع العدو . . أحاله إلى مقاتلة الزمن نفسه فتراه ونسمعه ينظر إلى السماء ويقول : « اليوم هو السبت منه » ويقول أيضاً . . « والآن الساعة الثالثة والنصف والخمس دقائق ! » . . إختبرنا تلك الموهبة ، تأكدنا من صدقها حتى أسميناه « بج عامر » .

غالباً ما تبدأ المناقشات بيننا كسولة بطيئة كأننا آثرنا الاحتفاظ بما فى رؤوسنا حتى إقترح « عامر » علينا :

« كل ليلة نسمع من أحدنا أفضل الأيام التى عاشها فى كبريت » « وأفضل الأيام التى نجمع عليها » ، قلتها ووافقونى ، فقال صيام :

« إذن هو يوم إغراق الزورق » . . وافقناه، بدأ يقص وكأننا لسنا من صناعه قال :

« علمنا باقتراب إحدى الوحدات البحرية للعدو . . إحتلت إحدى الجزر الصغيرة فى مياه القناة والقائمة أمام حدود وحدتنا فى كبريت . . يومها قال القائد :

— « يجب أن نتصرف على مستوى المسئولية ، يجب إغراق الزورق مهما كان الثمن . . .

كل الأسلحة اشتركت ليغرق الزورق قبل أن تحتل القوة التى فيه أرض الجزيرة ، فرحنا وهللنا . . . .

أكيد نجحنا فى تحدى الخوف والحصار داخل نفوسنا » . ما أن إنتهى حتى علا صوت عامر :

« هل تعلمون لماذا وافقتم على هذا اليوم بالذات ؟ » . لم يسمع رداً ، تابع وحده :

« لأنه كان بلا خسائر . . لا شهداء ولا مصابين فكانت الفرحة به خالصة مخلصة » . وكأنه ضغط على زناد الشجن تذكرنا الرفاق الشهداء فرداً فرداً ، لم

نصمد كثيراً أمام الرغبة للبكاء فبكينا ، بكينا ورفضنا تكرار اللعبة ثانية ، إلا أن الرائد سعد المتابع لحوارنا تدخل فى الحديث مجدداً ، وكأنه وجد فى التذكر متعة قال :

« فى بداية الحصار عرض العدو على العقيد ابراهيم خروج جميع أفراد الكتيبة بدون سلاح وتنضم إلى القوات المصرية المجاورة إلا أنه رفض بإصرار . عادوا وعرضوا عليه الخروج ثانية ولكن بكامل عتاد الكتيبة أسلحة وافراد ، وتنضم أيضاً إلى أقرب قوة مصرية . . فرفض أيضاً . لم ييأسوا ، لثالث مرة عرضوا استعدادهم للحوار معه وقبول بعض شروطه حتى يخرج مع قواته ، وتنسحب الكتيبة من الموقع إلى أى مكان يراه . . لثالث مرة يرفض أيضاً » . . بعدها قال :

« لن ننسحب وسوف نستشهد على أرضها » ، صدقت نبوءة الرجل ، كان أول من إستشهد بعدها وفى الهجوم التالى مباشرة ! » .

بمضى الوقت بعض أفراد الكتيبة لم يعودوا يشكون من أعراض مرضية بذاتها حتى أن الجندى عيسى (مسئول جهاز الاتصال) الذى ضرب فى آخر هجوم مباشر ، بدأ يتحسن يوماً بعد يوم ، أذهلتنى سرعة إستجابة هذا الرجل للشفاء .

قلت له فى حينها : « يبدو أن للحياة إرادة يا عيسى وأنت تملكها ، فالتأمت عظامك » . أحدهم سألنى تفسيراً أكثر قلت :

« ربما الالآم الكبيرة تنسينا بعض الآلام الصغيرة » . ها أن قلتها قفز إلى رأسى سؤال لم أبح به . . وقد تذكرت أخى فتحى المجند بالجيش الثانى وأعلم أنه يقيم فى سرابيوم وهى ضمن منطقة الثغرة وأخى الأصغر أسامة طالب الكلية الجوية . . . . كلاهما ومعاً . . ماذا يفعلان الآن ، بل ماذا تفعل أمى . . ربنا معها ؟ !!

ليلتها حاولت النوم . . فشلت كما كنت أفشل فى ليالى سابقة ربما لاحساسى أن إقتحام الوحدة لو تم سوف يكون أكيداً خلال ساعات الليل ووسط الظلام .

ذات صباح إجتمعوا حولى .. اندريا وصيام ومن خلفهما صامتاً جابر ، أخيراً فهمت سر المؤامرة التى تحاك من حولى ، ألحوا علىّ أن أُجرى لجابر عملية الطهارة !

قلت ببساطة وقناعة :—

« ليس وقته ولا مكانه » .. « بل هو زمانه ومكانه .. ماذا تفعل نراك بلا عمل ؟! » .. « والحرب »افترضوا معى أن العدو ... » .

قاطعونى : « لن نقتنع ولا تحاول معنا » .. رميت نظرة إلى الصديق جابر .. وجدته محتقن البشرة كما الكبد ، لامع وقد تندى بالعرق بالرغم من أننا مازلنا فى أخريات أيام الشتاء الباردة . أجريت العملية خلال ثلث الساعة إلا أنه ظل عاجزاً عن الحركة لثلاثة أيام . كنت خلالها قلقاً بالفعل حتى أنى لم أسمح بزيارته أو الدخول عليه .

حتى إذا ما خرج عليهم مشافى معافى . قصصت قصته وضحكنا كثيراً ليلتها وهم يزفونه ويزغردون له .. قبل زفافه الحقيقى .. لو كُتب لنا وله النجاة وخرجنا من الحصار أحياء !! اكتملت فرحتنا فور قدوم القائد إلينا ليقول لنا :

« لقد شُفى الذئب » .. عرفنا الخبر بعد أن تسلل الضابط سامى مع أحد الجنود عبر القوات المحاصرة إلى أقرب وحدات الجيش الثالث الميدانى المصرى . وهما أيضاً من أحضرا معهما إشارة رسمية من قيادة الجيش إلى قائد الوحدة أخبرنا بمضمونها فى الصباح التالى ، قرأها :

(تفيد الإشارة أن مساعد وزير الحربية وقائد الجيش الثالث سوف يصلان إلى الوحدة خلال هذا النهار) .

« كيف » ؟!

« لماذا » ؟ !!

« متى بالضبط » ؟؟ !!

رد على تساؤلنا فى بساطة لا تتناسب مع إنفعالاتنا الدهشة :

« اليوم سوف ينتهى الحصار إعتباراً من ساعة حضورهم » . انشغل ربيع

فى حذائه ، أخرج مسماراً منها بأسنانه . . حفر هذه الجملة : « بعد مضى ١٣٤ يوماً إنتهى الحصار فى كبريت .... الضفة الشرقية لقناة السويس » .

فى الأول من مارس ١٩٧٤ م .

* * *





مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ٤٤٥٩/١٩٩٥
I.S.B.N 977-01-4360-x